القسم الثالث

تعاليم الحاخامات
ونُبَذ من تراجم حياتهم

الفصل الأول

الرّابي يهوداه هَنَّاسي «الرّئيس»
רבי יהודה בן־שמעון (הנשיא)

كان الرّابي يهوداه المقدّس – المعروف أحياناً باسم «الرّابي» اختصاراً لعلوّ شأنه – قد تلقّى تعليمه في مجامع دينيّة عدّة ومن جميع مصادر المعرفة المتنوّعة المُتاحة للطالب ، منذ نُعومة أظفاره . وكان الرّجل ذا ثروة طائلة ، فلمّا ترقّى إلى شرافة منصب الرّئيس أو الكاهن ، أنفق طرفاً كبيراً من ثروته على الفقراء وإعالتهم . وكانت مرجعيّته بين أبناء عصره تفوق كلّ من سبقه ، فحاز على احترامهم ومحبّتهم معاً ، وكان يُقال إنه لم يجتمع لأحد منذ عصر مُوشيْه النّبي ما اجتمع له من معارف غزيرة وعميقة وسُلطة مرجعيّة وسموّ مكانة . ولقد كان أيضاً ، كما كان مُوشيْه ، يتحلّى بالتّواضع ويتجنّب الأبّهة ومظاهر السّلطة .

وكان يجعل كرسيه بالقرب من باب مجلسه ، لكي يوفّر على مستمعيه أمر القيام له عندما يمرّ بينهم ، وهو نوع من تكريم كان يمارسه غيره من الكهنة . ومن خلال نفوذه لدى أنطونيوس ، كان يُسمح لشعبه بدراسة الشريعة علناً ، كما حازوا جملة من الامتيازات كانوا في السابق محرومين منها ، وحصانة من العديد من إجراءات القمع التي كانوا يعانون منها في السابق . وفي خلال المدّة التي شغل بها منصبه الرّفيع بالفضل وفيض العطاء ، قام بجمع شروحات الرّبانيين السّابقين وأطروحاتهم ، مما يؤلّف في يومنا الحاضر مجموعة «المشناه» משנה .

يُحكى أن الإمبراطور أرسل مرّة للرّابي يهوداه جوهرة ألماس ثمينة ، طالباً منه عربون صداقة بالمقابل . فأرسل إليه الرّابي رُقعة «مِيْزُوزاه» מזוזה [1] . فقال الإمبراطور : «يا صاحبي إن هديّتك زهيدة القيمة بالقياس إلى العطيّة الثمينة التي أرسلتُها إليك» .

أجاب الرّابي : «إن ثمّة فارقاً كبيراً ما بين هديتي وهديتك ، حيث أن ما أعطيتني إيّاه عليّ أن أحافظ عليه وأحترز لئلا يُسرق مني ، أمّا ما أرسلتُه إليك فهو يحافظ عليك ويحميك ، تماماً كما هو مكتوب : «إذا ذهبتَ تهديك ، إذا نمتَ تحرُسك» [2] » .

ورغب الرّابي يهوداه بأن يتزوّج أرملة الرّابي إليعيزَر ، فأرسل إليها رسولاً يحمل طلب الخطبة ، فكان جوابها له كما يلي : «أيجوز أن يُضحي الوعاء المخصوص من قبل بالشؤون المقدّسة مُستعملاً الآن لأجل أمور أدنى اعتباراً ؟» مُلمحةً إلى أن الرّابي إليعيزر بن شمعون كان أسمى شأناً من الرّابي يهوداه . فكان لجوابها نفس فحوى المَثَل السّائر : «أيحقّ للرّاعي تعليق أوانيه حيث يعلّق صاحب البيت نفائسه ؟» .

فلمّا تلقّى الرّابي يهوداه هذا الجواب ، أرسل برسالة أخرى إليها يقول : «أصبتِ ، كان زوجك أكثر مني علماً ، غير أنني على الأقل أجاريه بالفضل» . أجابت الأرملة : «ما زلنا مختلفين ، لا أدري إن كان زوجي أكثر علماً من الرّابي يهوداه ، لكنه كان يفوقه بالصّلاح» .

ولكن هل كان الرّابي إليعيزر حقاً يفوق الرّابي يهوداه بعلمه ؟

جرت العادة في المدارس أن أهل العلم من مدرّسين وربّانيين كانوا يجلسون على كراسي مرتفعة ، بينما يقعد التلاميذ على مقاعد واطئة على الأرض . فلمّا كان الرّابي شمعون بن جَمْليئيل والرّابي يهوشُوَع بن قَرحا وبعض الرّبّانيين

---

(1) الميزوزاه هي رُقعة من الرّق تكتب عليها مقاطع من التّوراه (سفر التثنية 6 : 4-10 ؛ 11 : 13-22) ، وتُوضع كحرز على ساكفة باب البيت ، تبعاً لإرشادات التّوراه .
(2) سفر الأمثال - 6 : 22 .

الآخرين المشهورين جالسين على الكراسي ، كان الرّابي إليعيزر بن شمعون والرّابي يهوداه جالسين قرب الأرض . فرغب الرّابي شمعون بن جَمْليئيل ، وهو والد الرّابي يهوداه ، بأن يجعل لابنه سمة تمييز ، فحثّ المدرّسين على رفعه إلى أحد الكراسي . ولمّا تمّ ذلك ، تكلّم الرّابي يهوشُوَع قائلاً : «مَن كان له أبٌ يتكلّم عنه يحيا ، أما مَن لم يكن له فليفعل ما بوسعه ويموت» .

فلمّا سمع الربّانيون هذا القول قاموا برفع الرّابي إليعيزر بن شمعون أيضاً ، غير أن الرّابي إليعيزر ألفى نفسه مُزدرىً ومُهملاً ، لأن الكلام المذكور صدر قبل رفعه ، فقال : «هل الرّابي يهوداه خيرٌ مني ؟» .

ومنذ ذلك اليوم لم يشعر بأيّة مودّة تجاه الرّابي يهوداه . وكان فيما سبق يساعد هذا الأخير في تحضير المسائل المطروحة أمام المدرسة ، لكنه الآن راح يستخفّ بأسئلة يهوداه قائلاً : «إنها لا تستحق عناء المناقشة» .

كانت هذه المعاملة شديدة العَنَت على مشاعر الرّابي يهوداه ، فاشتكى لأبيه أمر الإهانات التي كان يتعرّض لها . فقال هذا الأخير : «لا تبتئس يا بُنيّ ، ولا تغضبنّ من كلام إليعيزر . فهو أسد ابن أسد (رجل فائق العلم ابن رجل فائق العلم) ، بينما أنت أسد ابن ثعلب (أي أنك أنت عالم ، لكن أباك ليس بذاك) ، ولذا فهو خيرٌ منك» .

ولعل هذا هو السبب الذي دفع الرّابي يهوداه ليقول : «ظهر في هذه الدّنيا ثلاثة رجال كانوا مثالاً للحلم والتّواضع : أبي ، وأبناء بيتيرا ، ويُوناتان بن شاؤول» .

أما ابنا بيتيرا فقد تخلّيا عن رئاسة الكنيسة الكبرى כנסת הגדולה «كْنيسِت هَجَدُولاه» لصالح هِلّيل لكونه رجلاً فائق العلم ، ولهذا تواضعا له . أما يُوناتان بن شاؤول فقال لداوِد : «أنت تحكم على يسرَئيل وأنا أكون نائبك» ، فهذا وجه تواضعه . وكذلك الرّابي شمعون بن جَمْليئيل ، إذ سمّى نفسه ثعلباً .

هذا ولقد عانى الرّابي يهوداه للغاية من آلام الجسد ثلاثة عشر عاماً قبل موته ، ولمّا شعر بدنوّ نهايته دعا بأبنائه إليه وكلّمهم بما يلي :

openkamal.com

«أطيعوا كلام والدتكم يـا أبنـائي ، واذكـروا تعـاليم الله العلـيّ . وحـافظوا على قنديل مُضاء في حجرتي ، واجعلـوا يوسيف الأوفني وشـمعون الإفرايمي ، خادميّ الوفيين في حياتي ، يحضران كذلك مراسـم موتي . أمـا الآن يـا أبنـائي ، فدعوني للمرّة الأخيرة أرى حكماء يسرئيل» .

فلمّا جاء الحُكماء ، بحسب طلبه ، قال : «لا تعملوا لـي خُطباً أو تأبيناً في المدن . بل افتحوا أبواب مدرستي ، وتابعوا مهامكم المقدّسة فيها ثلاثين يوماً بعـد موتي . ورغم أن ابني شمعون رجل حكمة وفهم ، فأنا أرغب بأن يكون خليفتي ابني جَمْليئيل . وليجلس حَنيناه بن حاماه في الكرسي الثاني بعد الرئيس . وإنّي لمحزون لعدم قدرتي على دراسة شريعة الرّب بعد اليوم» .

وبعد ذلك ، رفع يديه إلى السّماء وقال :

«يا ربّ يا إله الكون ، أنت تعلم إن كنـتُ عملـتُ بإخلاص بهـاتين اليديـن من أجل مجدك ، لتحصيل العلم بشريعتك ! فليكن مقبولاً لديك يا مالك الكون أن أرقد الآن بسلام !» .

وفي يـوم مـوت الرّابـي ، أعلـن الرّبـانيّون عيـداً ويومـاً للصّـلاة علـى روح رئيسهم المحبوب . وحرصوا كذلك على ألا يتسبّب نبأ موته بتعطيـل عبادتهم ، فظلّوا يصلّون حتى أتتهم إشـارة مـن بيـت الرّابـي ، فقـد شـعروا جميعهـم بهـدّة ، وكأن طامّة أصابتهم ، فكفّوا عن الصّلاة .

وتمّ دفن الرّابـي يهـوداه عشيّة يـوم شَبّات (السّبت المقـدّس) ، فمـات معـه التّواضع ومخافة الله بين النّاس .

وقيل إن الرّابي كان لديه خادم أغنـى مـن الإمبراطور[1] . ولقـد حـاز علـى ثروته من بيع فضلات إصطبلات الرّابي ، ممّا يعطي فكـرة عـن عـدد المواشي التـي كان الرّابي يهوداه يمتلكها .

* * *

(1) مثل ذلك يُعقل ؟ وهل ينبغي لرجال الدّين تكريس جهودهم لتحصيل الثروات ؟

الرّابي شمعون الصّالح
רבי שמעון הצדיק

كان الرّابي شمعون يقوم بمنصب الكاهن الأكبر خلال فترة عهد الإسكندر الظافر ، حوالي عام 3000 [1] . ولم ير بنو يهوداه من داع لمحاربة هذا الملك المقاتل ، ولمّا قدم إلى سورية في طريقه إلى مصر ، بعد انتصاره الأول على جيش الفُرس ، انضمّوا إلى المملكة التي قدّمت له فروض الطاعة .

فقام شمعون الصّالح ، كممثّل عن الأمّة ، بالتوجّه إلى ساحل البحر لتحيّة الفاتح ، وهو يرتدي ملابسه الحبريّة ، ويحيط به لفيف من الكهنة والأعيان بكامل أبّهة أثوابهم .

فتقدّم الإسكندر فوراً إلى الكاهن الأكبر وحيّاه بحرارة ، فلمّا عبّر ضبّاطه عن دهشتهم لهذا الترفّق أخبرهم الإسكندر بأن هذا الكاهن بهيئته وصفاته بعينه ، وهو يرتدي هذه الثياب التي عليه بذاتها ، قد تراءى له في منام وبشّره بالنّصر في حروبه .

وقام شمعون باصطحاب الإسكندر إلى الهيكل ، فلمّا هَمّ بالدّخول قال : «ليكن مُباركاً ربُّ هذا البيت» . ولقد تملّكه الإعجاب بروعة البناء ، وعبّر عن رغبته بأن يُجعل له تمثال يُنصب على سبيل التذكار ، ما بين الرّواق والمذبح . فأعلمه شمعون بأنه ليس من المسموح نصب أي تمثال أو صورة ضمن جدران المعبد ، لكنه وعده بغية تخليد ذكراه بأن جميع الولدان الذكور المولودين في شعبه بذلك العام سيُسمّون بالإسكندر . وعلى هذا النّحو حصل الرّبّانيون المسمّون بالإسكندر على أسمائهم .

وأقام الإسكندر على مودّته للكاهن الأكبر ، وبشفاعته منح اليهود حرّيتهم الدّينية وأعفاهم من ضرائب الجزية في خلال السنة السّبتيّة (آخر كل سبع سنين) ، كما دخل اليهود في جيش الإسكندر ، وأسهموا في فتوحاته .

---

(1) هو الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا والفاتح الشهير (356–323 ق.م) . والتاريخ المذكور حسب التقويم العبري الذي يُصطلح عليه أنه يبدأ ببداية الخليقة .

لكن هذه العلاقات لم تستمرّ للأسف بعد موت الإسكندر . ففي غضون النّزاعات التي استحرت بين قوّاده والتي أعقبت ذلك ودامت عقدين من الزّمان ، عانى الشّعب اليهودي التّباريح . فقام جيش أنتيگونوس وابنه ديميتريوس بإهلاك الحقول الزّراعية الخصيبة كلّها ، وقوّضوا السّلام المقدّس ، وملأوا أهالي مقاطعة اليهوديّة יהודה (باللاتينية Judaea) بالرّعب والفزع .

وكان أن اجتيحَت يروشَلايْم في يوم شَبّات . أما أسوارها الهائلة وتحصيناتها التي لا تُرام منذ أيام نحمياه ، فقد تمّ ثانية اختراقها وكسر صمودها ، وفُتحت المدينة على مصراعيها أمام أعدائها .

ولقد عاش الرّابي شمعون ليشهد بأمّ عينيه هذه الأحداث ، وخضعت ثقته بالله ومحبّته لشعبه إلى محنة أليمة . لكن إيمانه مع ذلك لم يتزحزح أبداً . فقام بتدعيم الهيكل ، ورمّم أركانه المتضرّرة ، وأرسى أسس المحاكم الخمس . كما قام بتوسيع خزّان المياه في الهيكل ، للاحتراز من العوز في أيام الحصار ، ومنذ ذيّاك الحين أضحت للهيكل مؤونته الكافية من المياه ، وفي هذا إشارة تتعلّق بمناخ يروشَلايْم وطبيعة تربتها .

وكذلك لم يُغفل شمعون الشؤون الرّوحية لشعبه . فلم يتركهم يتوهّمون أن قوّتهم وأمنهم إنما كانا يستندان فقط إلى العوامل الدّنيوية . بل كان متذكّراً تماماً لتعاليم أسلافه : على ثلاثة أمور يقوم خلاص يسرَئيل : «على طاعة أوامر الشريعة ، وعلى تقوى الله المتمثّلة بالبركة المتأتّية من العبادة في الهيكل ، وعلى أعمال الخير والصّدقة» .

هذا وإن الحروب والاضطرابات العديدة التي عصفت بالفترة التي عاشها ، كانت حافلة بالشّرور المتعدّدة والفائضة ، فراح ذوو النّفوس الفائقة التّقوى ، كما في عهود الأنبياء ، ينزعون إلى الاعتزال عن الدّنيا ، وتكريس أنفسهم لله عبر «نذر النّذير»[1] .

---

(1) النّذير נזיר في اليهوديّة شخص يلتزم صوماً وتبتّلاً معيّناً ، غايته تطهير النّفس عن طريق إقصائها عن الشهوات . راجع ما يرد عنه في سفر العدد – 6 .

بيد أن الرّابي شمعون لم يقرّ ذلك ، وراح يعترض عليه بعدّة طرق . غير أنه مع ذلك أتى على استثناء في إحدى الحالات ، وهي حالة راع شاب ووسيم ، ألفاه مُخلصاً حقاً في رغبته . فلمّا أتاه هذا الأخير ، راغباً أن يضحي نذيريّاً استجوبه الكاهن الأكبر على النّحو التالي :

«ما الذي يدعوك ، وأنت بهذا الصّبا والوسامة ، وبتلك الذّوائب الحريرية المُنسدلة ، إلى إخفاء هذا الجمال كلّه وإلى اتّضاع ما يُبهج عيون النّاظرين ؟» .

فأجاب الشاب : «ذلك لأن ذوائبي المنسدلة كادت توقعني في الخطيئة من أجل الباطل وحسب . لقد رأيت انعكاس صورة وجهي في جدول صافٍ ، وإذا بميل جارف لعبادة الرّب يستولي عليّ ، فها أنا ذا أرغب في الحال بتكريس شعري للرّب ، عن طريق نذر النّذير» .

فما كان من شمعون إلا أن قبّل الرّاعي الشاب ، وقال له : «ليته كان لله في يسرَئيل عديد من النّذيريين مثلك» .

ولقد اشتهر الرّابي شمعون بحفظه الدقيق لأحكام الشريعة ، وبخدماته كرئيس وعضو في المجلس الأعلى ، وبالأسلوب الفعّال الذي قوّى به الحماس الدّيني للشعب ، كما أسهم في أعمالهم ومؤسّساتهم جميعها .

ولقد شغل منصب الكاهن الأكبر مدّة أربعين عاماً ، وأعلن بنفسه دنوّ موته باستكمال واجباته في يوم الغفران יום כפור (يوم كِپور) . فكان لدى دخول قُدس الأقداس في هذا اليوم المقدّس من كل عام ، معتاداً على رؤية طيف يلبس ثياباً بيضاء ، كان يُحصي عليه أعماله خلال تنفيذ مهام منصبه . ففي هذا اليوم بالذّات لم يره ، وعَدّ ذلك بمثابة النّذير على موته . وبالفعل مات بعد مضي سبعة أيام على اليوم المقدّس .

ولقد كرّمته الأجيال باعتباره الأقدس بين النّاس ، وكان ثمّة تأكيد جازم على حصول آيات الكرامات الإلهية خلال مدّة حياته بلا توقّف . غير أن أحفاده تخلّوا عن الدّين اليهودي بالكليّة ، وكانوا مثالاً حيّاً لتلك الأفعال التي استجرّت على يسرَئيل الخراب في عهد أنطيوخوس إپيفانِس .

وحصل بعد موت شمعون بمدّة قصيرة ، وعلى ضوء الانحلال الذي تفشّى في الشعب ، أن الأتقياء قرّروا أن استخدام اسم الله الأقدس ينبغي أن يكون حكراً على الكهنة فحسب . وتمّ استبدال الحروف الأربعة للاسم المقدّس نفسه[1] ، الذي بقي يُنطق فقط على لسان الكهنة عندما كانوا يختتمون صلاة الأضحية اليوميّة ، فيتلفّظون بالمباركة للشعب ، وكذلك على لسان الكاهن الأكبر في يوم الغفران .

الرّابي يشمعيل ، الكاهن الأكبر
רבי ישמעאל כהן הגדול

كان الرّابي يشْمَعيل واحداً من أبرز وأرقى آباء الأدب التّلمودي . وكان صافي العقيدة ، سامي الفكر ، ذا شروح جليّة ودقيقة . ولقد قضى شهيد العَسف الرّوماني ، فكانت هذه النّهاية تتويجاً للحقيقة والمصداقيّة لأعمال حياته ومقولاته كلّها .

إن كان ثمّة خلود تاريخي وخلود للرّوح ، فإن الرّابي يشمعيل قد حاز الأول وكان راسخ الإيمان بالثاني . إن مَن يظن أن عقيدة خلود الرّوح هي نتيجة لأباطيل الإنسان الذي يدّعي لنفسه أفضليّة مُتخيَّلة على باقي الكائنات ، ومَن يظن أنها مبدأ خيالي قديم في التاريخ لا يمكن دونه لمحاكم الشريعة أن تتثبّت من نزعة الإنسان الطبيعية لفعل الشرّ ، لا يمكنه أبداً السموّ إلى جرأة الاستشهاد وشرفه . أما بالنسبة للرّابي يشْمَعيل ، فإن الإدراك العام ومبادئ الفطرة تثبت صحّة هذا المُعتقد .

فأولاً : ما من ذرّة من المادّة في وسع الكون بأسره يمكن أن تضيع ، فكيف يمكن إذاً لروح الإنسان أن تتلاشى ، وهي تؤلّف العالم بأسره في فكرة واحدة ؟

ثانياً : في الطبيعة بأسرها ، ليس الموت سوى عملية تحوّل ، وأما مع الرّوح فهو المدخل إلى مملكة جديدة وأكثر سموّاً .

---

(1) ذكرنا أن اسم الله الأعظم في العبرية : יהוה ينبغي لليهود عدم التلفّظ به إلا مرّة في السّنة (يوم كِپور) تعظيماً له ، ويُستعاض عنه بلفظ : אדני (أدوناي) : ربّي ، مولاي .

ثالثاً : إن أفكارنا ومشاعرنا ، النّابعة أصلاً من الرّوح ، ليست ذات طبيعة دُنيويّة .

كذلك فإن الرّابي يشْمَعيل دافع بحماسة عن عقيدة التخيير لدى الإنسان . قال الرّابي : «عندما يدخل امرؤٌ درب الحقّ والعدل ، فإن الله يكون في عونه ، لكنه عندما يختار طريق المعصية فإن الله يقول : «أمَا وقد أعطيتُك العقل وحرّيّة الإرادة ، فامضِ إذاً لما تشاء» ، وهذا كشأن البائع الذي يخدم الزّبون الذي يشتري بضاعة وأشياء مفيدة ، أما الذي يطلب الزّفت أو الكبريت فيقول له : «إمضِ فاحمله بنفسك» » .

وهنا يسأل كثير من النّاس : «فلماذا إذاً يسمح الله بوقوع كل ذلك القدر من الفساد والشرّ ؟» ، يجيب الرّابي يشْمَعيل : «هذا ليس من فعل الله ، بل منكم ، فأنتم بالذّات مصدر الشُّرور الأخلاقيّة والدّاعمون لها . فإن كان حقلٌ ما مُمرعاً بالأعشاب الضارّة ، هل يتذمّر الفلاّح إلى الله ؟ لا ، بل ليلُم نفسه على إهماله وكسله . أما مَن يمتلك حسّاً قويماً صادقاً ، فهو يُقرّ بأن فضائله إنما تعود إلى عمله هو ، وأما المُسرف على نفسه فهو لا يعرف إلا أن خطيئته هي له فحسب ، فواهاً له . إن عبارة «للتقيّ الصّالح يأتي العون من العُلى» هي التي كانت تشدّ من أزر أجدادنا الأتقياء ، وهي التي ينبغي أن تقوّي نفوسنا» .

وكذلك فإن تعريفه للإثم[1] أيضاً هو أعلى وأسمى من الأفكار المشوّشة للعديد من اللاهوتيين .

إن الإثم بمثابة الحاجز في القلب ، وهو عجز عن الشعور والإدراك بكل ما هو نبيل وأصيل وعظيم ، وعن المشاركة في الخير . إن كان للمرء أن يتحرّر من ربقة الآثام ، فينبغي أن يكون عقله وقلبه مفتوحين لتأثير الإشراق . وينبغي لذلك خضد وطأة أهواء النّفس ، والتّطهّر من التّحامل والأثرة والتّيه .

أما مَن يحلو له ترديد الرأي المغلوط بأن الدّين اليهودي يعدّ الله غير متسامح وحقود ، فيكفيه أن يتلو توصيف الرّابي يشْمَعيل لفضائل يوم الغفران :

---

(1) سبق أن ذكرنا أن عبارة «الإثم» مأخوذة عن الإغريقية ، لكننا نُوردها لاشتهارها .

«إن مَن يعصي أمراً واجباً لله ، ثم يتوب ، تجوز له المغفرة للتوّ» .

«إن مَن يأتي أمراً محرّماً ثم يتوب ، يُغفر له في يوم الغفران» .

«إن مَن يقترف ذنباً جزاؤه الطرد أو القتل ، يجوز أن يُغفر له عن طريق المعاناة . وأما مَن يدنّس اسم الله فلا عقوبة له إلا الموت» .

وما هو تدنيس اسم الله ؟ هو كما يرى الرّابي عمل مَن يقترض ثم لا يردّ ما اقترضه ، فهو مقترف لهذا الذّنب . يقول الرّابي أبايا : «فِعلُ الرّجل الذي يأتي ذلك ، فلا يكون اسم الله مكرّماً في فمه» .

ويقول الرّابي يُوحَنان : «هو فِعلُ مَن يحقّر نفسه» .

لكن لماذا يكون عصيان الأوامر الواجبة من الممكن التكفير عنه بسهولة ، كما يُظنّ عموماً ، وهي بهذه الأهميّة البالغة ؟ يقول الرّابي إن الذّنب الذي يُقترف في حق النّاس أشدّ في عيني الله ممّا يُقترَف في حقّه هو .

الرّابي مئير
רבי מאיר

«كل ما يفعله الله حَسَن جداً טוב מאד» .

إن الرّابي شمعون بن إليعزر يعمد إلى استخدام عبارة «حَسَن جداً» للإشارة إلى النّوم . فيقول : «ينام الإنسان ، ثم في بضعة ساعات يستعيد قوّة جديدة» . والرّابي صموئيل بن نَحمان يقول : «إن الدّافع الذي يحثّ الرّجل إلى النساء «حَسَن جداً» ، لأنه من خلال ذلك تُشيّد البيوت وتؤلَّف الأُسر» . وكان من رأي الرّابي هَمّونا أنه ما من معنى أكثر فاعليّة يمكن نسبه إلى عبارة «حَسَن جداً» كما هو الحال فيما يتعلّق بالثأر ، والرّابي شمعون بن لَكيش ينسبها إلى الحُكم السّياسي ، أما تعاليم الرّابي مئير فتنصّ على أن موت الإنسان «حَسَن جداً»[1] .

---

(1) التّلمود يحفل إلى الغاية بذكر المسائل الفقهية والمطارحات الجدلية الكلاميّة ، وهنا لم نعمد إلى الإطالة في مثل ذلك ، لأنه فوق حدود طاقة القارئ .

إن غاية الدّين اليهودي ليست التّفرقة العُنصريّة وإنما توحيد البشريّة[1]، وذاك كان أحد أعظم المبادئ التي قامت عليها حياة الرّابي مئير .

وفيما يتعلّق بنصّ الآية القائل : «ليطيع الإنسان الشّريعة ويعيش فيها» ، يقول : «إن النصّ المقدّس لا يحدّد اليسرَئيليين ، ولا اللّيويين ولا الكهنة ، إنما النّاس عموماً ، ولذا فإن الشخص الأممي الذي يطيع الشريعة يكون على حدّ سواء مثل الكاهن الأكبر» .

وفضلاً عن ذلك قال : «إمشِ أمام الجميع بتواضع ورِفق ، لا أمام من يتّبع دينك فحسب ، بل أمام الجميع» .

وكان الرّابي مئير عالماً لا يُجارى في حقل القصص الرّمزيّة ، ويُقال إنه كان يحفظ حول الثّعلب وحده ثلاث مئة قصّة . ومن هذه القصص لم يصلنا سوى ثلاث نُبَذ فقط .

«قال بعض الثّعالب لدُبّ : «تعال بنا نذهب إلى ذاك المطبخ ، فهم يقومون بالإعداد ليوم شَبّات ، وسيكون بوسعنا أن نحصل على الطعام . فتبع الدّبّ الثعلب ، لكن لكبر حجمه قُبض عليه ونال جزاءً مريراً . فلغضبه من جرّاء ذلك نوى أن يمزّق الثّعلب إرباً ، بحجّة أن أسلاف الثعلب كانوا مرّة قد سرقوا طعامه ، ومن هنا أتى القول الأول : «الآباء يأكلون الحُصْرُم ، والأبناء يضْرَسون» .

«قال الثّعلب : «لا ، بل امضِ معي يا صاحبي العزيز ولا داعي لتتشاجر ، سآخذك إلى مكان آخر حيث نجد الطعام دون ريب» . ثم أخذ الثعلب الدّبّ إلى عين ماء ، حيث كان ثمّة دلوان مربوطين معاً بحبل ، على هيئة ميزان . وكان الوقت ليلاً ، فأشار الثعلب إلى إلى انعكاس صورة القمر على الماء ، قائلاً : «ثمّة جبن طيّب ، فلننزل ونتناوله بكل متعة» . ودخل الثعلب الدّلو أولاً ، لكن بما أنه كان خفيفاً للغاية بالمقارنة مع وزن الدّبّ ، أخذ معه حجراً . ولكن حالما قفز الدّب إلى الدّلو الآخر رمى الثعلب بالحجر ، فإذا به يرتفع ، بينما غاص الدّب إلى قعر البئر» .

---

(1) ليس هذا بصحيح أبداً ، بل إن مبدأ اليهوديّة يضع اليهود فوق بقيّة البشر كلّهم .

فهنا يجعل مقولته الثانية : «الصّالح ينجو من الأزمات ، ومكانه يقع الشرّير» . وعلى كل امرئٍ أن يُعاني ممّا جنته يداه من ذنوب ، وبما كسبته نفسه من خطايا . وإنّ مَن يتّبع نجوم اللّيل ومراتع الفجور مصيره الهلاك دون ريب ، أما الصّالح وإن كان يحمل حجراً (ذنباً) ، فبوسعه أن ينتبذه قبل فوات الأوان ، وينجو من الموت .

كان إليْشَاع بن أبوياه العتيق (عبد روماني أُعتق) ، الملقّب باسم «أخير» אחר (الآخَر – الكافر) ، رجلاً ذا علم راسخ ، وكان واحداً من أساتذة الرّابي مئير ، وكانا مراراً ما يتساجلان في شؤون المقاطع التّوراتيّة .

وكان النّاس غير راضين عن معاشرة الرّابي مئير له[1] ، فدعوه لذلك باسم «أخيريم» אחרים ، وهي كلمة مؤلّفة من أحرف مئير وأخير . غير أن الرّابي مئير كان يُحيلهم إلى المثل القائل : «أصغِ بأذنك إلى كلام الحكماء ، ولكن وجّه قلبك إلى ما في فكري» .

كان الرّابي مئير يأكل التّمر وينبذ النّوى ، ومرّة صادف شجرة رمّان ، فلمّا أكل الثّمر كان يرمي القشر . غير أن أبناء جيله ما كانوا يفهمونه .

وفي إحدى المناسبات قال أخير للرّابي مئير : «لماذا تُشبّه الشريعة بالذّهب والزّجاج ؟» .

أجاب الرّابي مئير : «لأنها عزيزة المنال كما هو الذّهب عزيز في المعادن ، لكنها عُرضة للنسيان بالسّهولة ذاتها التي ينكسر بها الزّجاج» .

أجاب الآخر نقلاً عن الرّابي عقيبا : «لا ، بل السبب هو ما يلي : عندما يتكسّر الذّهب والزّجاج يمكن أن يُصهرا معاً ويشكّلا بهيئات جديدة . فكذلك هو شأن طالب الشريعة ، رغم أنه قد يقترف عدّة خطايا يبقى منه أمل» .

وكان الرّابي مئير يؤثر عمل الخير على الدّوام ، وعناية الإنسان بنفسه كما بالآخرين . وكان يؤكّد على أن «الغني بالفعل هو مَن يتمتّع بغناه» .

---

(1) لأن إليْشَاع ارتدّ في آخر عمره عن اليهوديّة ، كما سيرد في الفصل الثالث أدناه ص 305 .

أما الآية الواردة في سفر ملاخي (2 : 6) : «وأرجَعَ كثيرين عن الإثم» ، فقد فسّرها على أن المعني بها هو أهَرُون ، أول مَن ولي منصب الكاهن الأكبر ، الذي كان له من المكانة بحيث أن مجرّد ذكر اسمه ، أو التفكير بالكيفيّة التي قد يعتبر بها عملاً ما فيما لو كان حاضراً ، كان يكفي لمنع الكثيرين من الوقوع في الخطيئة .

في إحدى المرّات قال رجل وثني للرّابي مئير : «هل يُعقل أن الله ، الذي تؤكّد أن جلالته تملأ الكون الفسيح ، يمكن أن يتكلّم من بين ضلعي تابوت الحَرَم المقدّس ؟» .

فللإجابة على هذا السّؤال ، حمل الرّابي مئير أمام الوثني مرآتين ، فرأى السّائل في كلّ واحدة منهما صورته . قال الرّابي : «الآن ، في كل مرآة قد صَغُر حجم جسدك ليتلاءم مع مقياس المرآة . أفيكون مثل هذا الأمر إذاً مستحيلاً على الله ؟ إن الدّنيا هي بمثابة مرآته الكبرى ، والحَرَم المقدّس مرآته الصغرى» .

أما بخصوص التعليم ، فكان الرّابي مئير يقول دائماً : «علّم تلامذتك بشكل مختصر» . وكان يقول أيضاً : «لتكن تطبيقاتك موجزة» ، وكانت نصيحته للآباء هي : «عَلّم ابنك حرفةً قويمة» .

أما حكمتُه المفضّلة فكانت : «كُن مصمّماً على معرفة طُرُقي ، وكُن نابهاً على أبواب الشريعة ، واحترز على شريعة قلبك . وليكن نُصب عينيك الخشية مني ، واحم فمك من الوقوع في الذّنب ، طهّر نفسك ونزّهها عن كل إثم وذنب ، فيكون الله إذاً معك» .

ومن خلال عبارة : «كُن نابهاً على أبواب الشريعة» ، يبيّن الرّابي مئير أن على كل دارس أن يتتلمذ على ثلاثة مدرّسين على الأقل ، ولكلمة «أبواب» معنى أو مفهوم خاص . فعلى سبيل المثال ، عندما يمرّ شخص بباب بيت أمضى فيه شهر العسل ، أو بباب دار عدل حُكم عليه فيها أو تمّت تبرئته ، أو بباب بيت قام فيه باقتراف ذنب ما ، فكم من الخواطر المختلفة والمشاعر والذكريات ستجول في خاطره . فبالوطأة ذاتها ينبغي أن تنطبع في ذهنه أوقات تدارسه للشّريعة .

يُسمّى اليسرَئيليّون «أبناء الله» ، والرّابي مئير لم ين يقدّم هذه الرّابطة البنويّة بوصفها الحقيقي ، مُترعاً إلى الثّمالة كأس السّعادة العائليّة ، ومظهراً إيّاها لأعين الشعب . ولقد قال : «النّبي يِرمْياه يسمّينا «بَنون جاهلون» ، وفي سفر التّثنية يُشار إلينا بعبارة «هذا الجيل الشّرّير» ، لكننا على أي حال ووجه نبقى نحن «أبناء الله» » .

هذا ولقد كانت امرأة الرّابي مئير طيّبة وصالحة كزوجها .

كان بجوار الرّابي يقطن بعض أتباع الدّين اليهودي ممّن يتبعون أعراف الإغريق ، فكان الرّابي يتبرّم منهم كثيراً وكاد لشدّة غيظه أن يدعو الله ليهلكهم ، غير أن بِرُورْياه ברוריה امرأته قالت : «لا تنس تعاليم دينك . لا تدعُ بموت المذنبين ، بل بأن تزول الذّنوب ذاتها ولا يبقى ثمّة مجال لدوامها» .

وخلال غياب الرّابي عن بيته في إحدى المرّات ، مات اثنان من أبنائه . فما كان من أمّهما إلا أن كتمت حزنها ، وانتظرت عودة الأب ، فقالت له :

«يا زوجي ، منذ مُدّة سُلّمت إليّ جوهرتان فائقتا القيمة ، برسم الأمانة . واليوم إذا بمن ائتمنني عليهما يطلبهما ، فقمتُ بتسليمهما إلى يديه !» .

قال الرّابي مُثنياً : «هذا والله حقّ ، ينبغي لنا دوماً أن نردّ بكل رضا وأمانة كل ما يوضع في أمانتنا» .

بُعيد ذلك ، سأل الرّابي عن ابنيه ، فما كان من الأم إلا أن أخذت بيده ، واصطحبته برفق إلى حجرة الموت . فتفرّس مئير بولديه ، ولمّا أدرك حقيقة الأمر انفجر يبكي بمرارة ولوعة .

«لا تبكِ يا زوجي الحبيب» ، قالت الزّوجة النّبيلة ، «ألم تقل لي إن علينا أن نردّ برضا عندما يُطلب منّا كلّ ما وُضع في أمانتنا ؟ فالله أعطانا هاتين الجوهرتين وتركهما معنا لبعض الوقت ، فابتهجنا بحيازتهما ، لكنه سُبحانه الآن طلب ما هو له ، فليس لنا إلاّ السّمع والطّاعة بغير تذمّر» .

* * *

هِلّيل هَنّاسي
הלל הנשיא

كان هِلّيل «رئيس يسرَئيل» سَليل عائلة بارزة ، فكان أبوه من سِبط بنيامين بينما كانت أمه تنتمي لنَسَب مباشر للملك داود . وعاش قبل حوالي مئة عام من دمار الهيكل الثاني ، وسُمّي هِلّيل البابلي لكونه وُلد في بابل .

كان الرّجل في الأربعين من عمره قبل أن يبرح مدينته الأم كيما يشرع في دراسة الشّريعة ، فواظب على الدّراسة على شمَعْياه وأبطاليون مدّة أربعين عاماً ، ثم منذ ذلك الحين حتى موته ، بعد أربعين عاماً ، كان رئيس المدرسة .

وخلال مدّة حياته كتلميذ ، كان هِلّيل مراراً يعاني العُسر في متابعة دراساته . وثمّة حكاية مشهورة عنه حول ذلك ، أنه في إحدى المرّات عندما كان لا يملك القسط الذي يطلبه البوّاب للدّخول إلى المدرسة ، قام بتسلّق عتبة النّافذة رغبةً منه في الاستماع إلى المحاضرة عبر مصراعي النّافذة . وصادف أن الثّلج كان يهطل ، ولفت انتباه التّلاميذ إلى حدّ بالغ أن هِلّيل اكتسى بالثّلج تماماً دون أن يُلقي إلى ذلك بالاً ، حتى أنه فقد الحسّ من جرّاء البرد . ولقد انتبه إليه أولئك الذين في الدّاخل بسبب حلول العتمة باكراً في الحجرة ، فقاموا بحمله إلى الدّاخل وعملوا على ردّ وعيه إليه .

هذا ولقد تمّ ارتقاء هِلّيل إلى رئاسة المدرسة على نحو مُبهر . فلقد حلّت عشيّة عيد الفصح في يوم شَبّات (السّبت المقدّس) ، وكان كبيرا الحاخاميم في مدينة يَرُوشَلايم (أورشليم) آنذاك هما ابنيّ بيتيرا ، فسُئلا في شأن الفتوى حول مشروعيّة وصحّة إعداد وجبة عجل الفصح ضمن يوم شَبّات . ولمّا عجز الاثنان عن حلّ المسألة ، قيل لهما بأن ثمّة رجلاً من بابل ممّن درسوا على الحبرين الشهيرين شِمَعياه وأبطاليون هو الآن في المدينة ، وبوسعه مساعدتهما في الأمر . فتمّ استدعاء هِلّيل فأجاب على المسألة بكل حكمة وجلاء ، ممّا جعل ابني بيتيرا ينبريان قائلين : «والله إنك لأجدر منّا وأقدر على تولّي منصبنا هذا» ، ومن خلال وساطتهما تمّ انتخاب هِلّيل رئيساً للمدرسة في عام 3728 للخليقة .

وكان هِلّيل رجلاً رائق المزاج وطيّب السّريرة ، لكنه سرعان ما واجه خصماً حادّ المزاج وعجولاً هو شَمّاي[1] . قام شَمّاي بتأسيس مدرسة سمّاها בית שמי (بيت شَمّاي) ، فاشتجرت بينها وبين مدرسة «بيت هِلّيل» בית הלל المساجلات الفقهية بشكل حاد ودائم ، ولكن في الغالبية العُظمى من الحالات كانت الأسبقيّة في السِّجال العلمي لصالح هِلّيل وتلامذته .

وكان عدد تلاميذ هِلّيل ثمانين ، أبرزهم يهوناتان بن عُوزيئيل .

في إحدى المرّات أتى مُلحد إلى شَمّاي الرّابي ، وسأله بطريق الهزء أن يلقّنه مبادئ العقيدة اليهوديّة في خلال الفترة التي يمكنه الوقوف فيها على قدم واحدة . فما كان من شَمّاي إلا أن استشاط غضباً ، وانتهره طارداً إيّاه ، فذهب الرّجل عندها إلى هِلّيل ، الذي ابتدره قائلاً :

« «ما تكره لنفسك لا تفعله لغيرك» . هذا هو جوهر الشّريعة ، وأمّا ما عداها فلا يعدو أن يكون تفسيراً لها» .

هناك كثير من التّلامذة الأغبياء يطرحون أسئلة تدعو إلى الغيظ . سأل أحدهم : «كم قانوناً يوجد للشريعة ؟» .

أجاب هِلّيل : «اثنان ، القانون الشفهي والقانون المكتوب» .

قال التّلميذ : «فأنا أؤمن بالأخير ، لكن لماذا علي أن ألتزم الأوّل ؟» .

فعندها سطّر هِلّيل الأبجدية العبرية على صحيفة ، وأشار إلى الحرف الأول منها ، وسأل التّلميذ : «ما هو هذا الحرف ؟» .

قال التّلميذ : «ألف» .

قال هِلّيل : «حَسَن ، فما التّالي ؟» ، وأشار إليه .

«بيت» .

«حَسَن أيضاً ، فما أدراك أن هذا «ألف» وذاك «بيت» ؟» .

«هذا ما أخذناه عن معلّمينا وأسلافنا» .

---

(1) أنشأ شَمّاي مدرسته لحُكماء اليهود (الكَتَبة) في أورشليم بالقرن الأول الميلادي ، وكان ألدّ أعداء فرقة الفَريسيّين التّلموديين التي يتزعّمها هِلّيل ، فلهذا يتّهمونه بالتّشدّد .

قال هِلّيل : «فإذاً ، كما ارتضيت ذلك بالإيمان ، عليك أن ترتضي بقانون الشريعة» .

وكدليل على تفكير هِلّيل العملي ، وعلى تفهّمه الواسع لحاجات عصره ومتطلّباته ، هاك هذه القصّة المعبّرة :

بحسب شرائع التُّوراه ، ينبغي توفية الدّيون جميعها في السّنة السَّبتيّة (آخر سبع سنين) שנה שמטה «شَناه شميطاه» ، كما هو مكتوب : «في آخر سبع سنين تعملُ إبراءً ، . . . ممّا أقرضَ جاره» ، إلخ (سفر التّثنية – 15 : 1–2) . فهذا القانون ، المقصود به الحدّ من تفاوت الثّروة ، والموائم للحاجة التي سُنّ من أجلها في بعض الأحوال ، كان في عهد الملك هيرود مصدراً للإشكالات . فكان الغنيّ يُحجم عن إقراض أمواله لمن هم بأمسّ الحاجة إليها ، خوفاً من فقدانها جرّاء شروط هذا القانون الشّرعي . فلدرء هذا الضّرر قام هِلّيل ، دون أن يعمد مباشرة إلى إبطال شُرعة التّحديد الإلزامي ، بسنّ حاشية تقضي بأن من حقّ الدائن أن يستصدر إقراراً ممضياً نظامياً قبل السنة السَّبتية ، يكفل له حقّه باسترداد ديونه المتراكمة في أيّ وقت يراه مناسباً . فكان هذا التّشريع مفيداً لكلّ من الغني والفقير على حَدّ سَواء ، وأضحى قانوناً سارياً بإجازة الحاخامات له .

وكانت وفاة هِلّيل حوالي العام 3764 للخليقة .

الرّابي «راشي»
רבי רש"י

«راشي» اسم مُركّب من الحروف الأولى لعبارة : «رابي شْلومو يِصْحاقي» רבי שלמה יצחקי (الحاخام شلومو بن يصحاق) ، ولقد وُلد حوالي عام 1040 للميلاد في تروا Troyes بفرنسا . ولمّا كان صبيّاً كان تحصيله الدّراسي متألّقاً ، فأجاد في أشدّ العلوم تعقيداً بغيرما عناء ، وحاز إلى جانب تمرّسه الكبير في الفيلولوجيا ، والفلسفة ، والطبّ ، والفَلَك ، والقانون المدني ، على براعة تامّة في حقول المعارف التّوراتيّة والتّلموديّة الرّحبة .

ولقد شرع راشي في كتابة تفاسيره على أسفار التُّوراه في سنّ غضّة للغاية ، فأكملها كما يُقال في سنّ الثالثة والثّلاثين . لكنه قبل أن يطرحها على الملأ ارتحل سبع سنين ، ليزور جامعات إيطاليا واليونان وألمانيا وفلسطين ومصر ، ويستجمع لصالح الأجيال القادمة كلّ ما يمكن جمعه لعلاّمة مُتقن مثله ، ذي عين مدقّقة ، وذهن متّقد موهوب ، وعقليّة باحثة دؤوبة .

ولدى عودته إلى فرنسا ، نشر راشي تفسيره لأسفار الكتاب المقدّس ، في كتاب لم يتمكّن أحدٌ بعده أبداً من تجاوزه بالقيمة ، وما زال إلى العصر الحاضر يُنشر مُرفقاً بالنّسخ العبرية من الكتاب المقدّس (تُوراه ، نبيئيم ، كتوبيم) . كما ألحق به بعد برهة من الزّمن تفسيراً لثلاثة وعشرين مَبحثاً من مباحث التّلمود[1] .

وما لبث كثير من كتبه لم يُنشر قَطّ ، فيما نُشر بعضها الآخر وأُزجي أمام الملأ ، فمنها كتابٌ في الطبّ ، وقصيدة بعنوان : «توحيد الله» . وتوفّي راشي (عام 1105 م) وله من العمر خمسة وسبعون عاماً ، عن ثلاث بنات ، كانت إحداهن (يُوكيبد) أمّ الرّابي صموئيل بن مئير ، الذي اضطلع بتحرير أعمال جدّه وأضاف إليها أشياء .

أضحت عبقريّة راشي ونفسه الرّئيفة وعلومه الزّاخرة مضرب الأمثال لدى الأجيال التّالية ، وغدا بطلاً للعديد من الأساطير من النّوع الذي كانت العقول في تلك الأيام السّالفة متعطّشة للاعتقاد بها والمُبالغة فيها .

يُروى أن أحد ملوك البلاد دعاه في إحدى المرّات ، وقال له : «لقد جهّزتُ مئة ألف عربة ومئتي سفينة ، وأرغب في احتلال بيت المَقدِس . وطالما أن جنودي وضبّاطي يتفوّقون بفنونهم القتاليّة وشجاعتهم على الذين يحتلّونها الآن ، فما تراه لي من حظوظ الفَلاح ؟»[2] .

أجاب راشي : «لَتستولينّ على القُدس ، وتحكُمنّها ثلاثة أيام ، لكنك عائدٌ إلى هذه المدينة ومعك ثلاثة جياد وبقدرها من الرّجال على متنها» .

---

(1) تُعرف إلى اليوم باسم : شروح الحاخام راشي . راجع مقدّمتنا لهذا الكتاب .

(2) الحاكم المذكور هو گودفروا دى بويّون Godefroi de Bouillon ، احتل القُدس 1099 م .

فابتدره الملك قائلاً ، والغيظ من نبوءته يأخذ منه كل مأخذ : «إذاً فإيّاك أن تراني راجعاً بأربعة جياد ، لأنني إن عُدتُ ولو بجواد واحد فقط أكثر ممّا تقول ، سوف أطرح لحمك لطيور السّماء» .

ودامت الحرب أربع سنين[1] . وعاد هذا الملك أدراجه وليس معه من جيشه كلّه سوى أربعة خيّالة ، وفيما كانوا يعبرون بوّابات المدينة سقط حجر فقتل جواداً مع راكبه على الفور . فأعاد ذلك إلى الأذهان كلام راشي ، ولكن عندما طلبه الملك ، ألفى أن الشيخ خلال غيابه قد بارح عالم الأحياء .

ويُزعم أن كرسي راشي الذي كان في المدرسة ما زال موجوداً إلى اليوم .

وكان راشي يُعرف أيضاً باسم «يَرحي» יִרחי ، المشتقّ من اسم المدينة التي كان يعيش فيها (Lunel) ، حيث أن اسم «يَرِيَح» יֶרַח في العبرية يعني القَمَر ، كما هو اسم *lune* في الفرنسية ، والذي يقابل اسم المدينة .

نجد في تعاليم التّلمود : «الصّالح لا يموت» ، وكذلك : «ما أسعد مَن الذي يجد ضالّته في الحكمة ، ويحوز نعمة الفهم» .

الرّابي مُوشيْه بن مَيْمُون
רבי משה בן־מימון

يُعدّ الرّابي مُوشيْه بن مَيْمُون[2] (أو «رَمْبَم» רמב"ם ، اختصاراً لعبارة : رابينو مُوشيْه بن مَيْمُون) أحد أعظم علماء التّفسير اليهودي ، وهو فوق ذلك من سُلالة الرّابي يهوداه جامع المشناه . وُلد في مدينة قُرطُبة Cordova بالأندلس في 30 آذار من عام 1135 للميلاد . كان أبوه مُسنّاً بعض الشيء عندما تزوّج ، ويُروى أنه دخل الحياة الزّوجيّة عن طريق حُلم تراءى له مرّات متتالية بأنه يتزوّج ابنة جزّار يُقيم في حيّه ، وكانت تلك هي المرأة التي تزوّجها بالفعل .

---

(1) بدأت الحملة الصّليبية الأولى عام 1095 م وسقطت القُدس 1099 م ، ومات راشي 1105 م .
(2) انظر كتاب إسرائيل ولفنسون : «موسى بن ميمون ، حياته ومصنّفاته» ، القاهرة 1936 .

كان مُوشيْه الابن الوحيد الـذي أنجبته هـذه المرأة ، ثـم مـا لبثت أن توفّيت عقب ولادته . والتزم أبوه بالحِداد على رحيلها لحوالي العام ، ثم عاد فتزوّج مـن جديد ، ورُزق من هذا الزّواج الثاني بعدّة أبناء .

لم تبدُ على مُوشيْه في صغره مخايل النّجابة أو حبّ العلم ، وهذا مـا أحـزن قلب أبيه كثيراً . وأخفقت جميـع المحـاولات لحثّه علـى متابعـة التّحصيـل ، فـراح إخوته ينعتونه بلقـب «صبي الجـزّار» ، كنـوع مـن الغَمـز علـى بلادتـه ، وفي نهايـة المطاف استبدّ الغضب بأبيه فطرده من منزله .

راح مُوشيْه يرتحل في البلاد ، بغير مُعين أو رفيق ، فصادف ربّانيّـاً متفقّهـاً في الدّين ، فأعجب بحكمته ومعرفته أيّما إعجاب ، إلى حدّ أنه قرّر أن يدرس مُجـدّاً إلى أن يُضاهي هذه الدّرجة الرّفيعة من العلم .

بعد مضيّ عدّة سنوات ، أُعلن عن تعيين واعظ جديد ليُلقي خُطبـة الصّلاة في كنيس قُرطُبة بأحد أيّام شَبّات . وراحت الأخبار والأقاويل تتنال حـول علومـه الغزيرة وفقهه العميق وفصاحته البليغة ، حتى تملّك الشوق الجميع للاسـتماع إلـى مَوعظته . ولمّا حلّ يوم شَبّات ، واستمع النّـاس إلـى الخُطبـة ، وجـدوا فيهـا مـادّةً وحُسن إلقاء وصدقاً وتأثيراً تفوق كل ما كانوا عهدوه من قبل ، وكم كانت دهشـة ميمون الأب وأبنائه عندما ألفوا أن الرّجل الـذي كـانوا توّاقين للتّشـرف برؤيتـه مـا كان غير قريبهم الطريد .

كان أول تفسير وضعه مُوشيْه بن ميمون على متن «المِشناه» ، واختتمه بهـذه العبارة : «أنا مُوشيْه بن ميمون ، شرعتُ في تأليف هذا التّفسـير لمّـا كنـتُ في الثالثة والعشرين من العمر . وفرغتُ منه في سن الثلاثين بأرض مصر» .

وكان أن هرب مُوشيْه بـن ميمـون إلـى قـاهرة مصـر مـن الأندلـس ، لتفشّـي التعصّب والاضطّهاد بها ضدّ اليهود . فدرس فيها اللغتين الإغريقيّة والكلدانيّـة ، وأتقنهما بعد سبع سنين من المثابرة . وذاع صيته في البلد ، فأقرّ لـه الجميـع بمكانتـه العلميّة الرّاسخة وعلومه العامّة ، ولم يقتصر اعتبار مؤلّفاته علـى أبنـاء دينـه ، بـل تعدّاهم إلى جميع أهل العلم والمعرفة في عصره .

ويُقال إن ملك مصر قد عيّنه واحداً من بين مجموعة أطبّائه[1] . وكان رجال العلم في المملكة آنذاك يُقسمون إلى سبع مراتب ، ولكلّ مرتبة موقع يوازيها بالقُرب من عرش الملك في المناسبات الرّسميّة . وإذ عَدّ الملكُ مُوشيْه بن ميمون متفوّقاً على الجميع بمراحل ، فقد خصّه بموقع متفرّد . لكن مُوشيْه أبى ذلك لتواضعه ، فيما استَشْرَت الغيرة ببقيّة الأطباء من جرّاء موقعه السّامي ، ولمّا كانوا عاجزين عن أذيّته عَلانيةً ، فقد جهدوا للطّعن به في الخفاء .

أصيب الملك بمرض شديد ، فأشرف مُوشيْه على علاجه . وما كان من الأطبّاء إلا أن استغلّوا ذلك ، فوضعوا السّمّ غيلةً في جُرعة الدّواء الذي أعدّه له مُوشيْه ، وأخطروا الملك بأن هذا الأخير متآمر على قتله . ولإثبات صحّة كلامهم قاموا بطرح بعض المُركّب لكلب ، فما لبث أن مات .

حلّ الحزن والدّهشة بالملك ، أما مُوشيْه الذي عقدت المفاجأة لسانه فبُهت ومكث عاجزاً عن الكلام .

قال الملك : «الموت جزاء كلّ مَن يتربّص بمليكه لاغتياله ، فاختر كيف تُلقّى جزاءَك» .

طلب مُوشيْه ثلاثة أيام للتفكير ، فأعطاه الملك ما طلب . وخلال هذه المدّة أعدّ تركيباً خاصّاً ، وأوصى تلامذته بتجهيزه واستعماله بحسب إرشاداته ، عندما يؤتى به إلى بيته فاقداً الرُّشد . ثم مَثُل أمام الملك ، ورغب إليه بقطع أوردته . غير أن الشريان الأساسي بقي بمنأى عن مدية الجلاّد ، كما توقّع مُوشيْه ، وكانت النتيجة بالتالي كما رسمها . فبعد تعافيه هرب من مصر ، ولجأ إلى كهف ، حيث ألّف كتابه الشهير «يَد حَزَقاه»[2] יד חזקה (اليد القويّة) ، الذي يتألّف من أربعة عشر فصلاً ، ترمز إليها كلمة «يَد» יד التي تبلغ قيمتها العددية 14 أيضاً .

---

(1) بعد سنة 1160 م نزحت أسرة ميمون من قُرطُبة إلى فاس في المغرب ، ومنها أبحرت في حوالي عام 1165 م إلى عكّا فمصر واستقرّت في مدينة الفُسطاط . وفيها مارس مُوشيْه الطبّ وذاع صيتُه ، فعُيّن طبيباً خاصّاً للسّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيّوبي ، ثم ابنه الملك الأفضل نُور الدّين أبي الحَسَن علي .

(2) المعروف أن «يَد حَزَقاه» هو ذاته كتاب «مشنيه تُوراه» الوارد ذكره أدناه .

قام مُوشيْه بن ميمون بتبسيط قواعد التّلمود والمرويّات الشفهيّة ، فيسّرها لأفهام الجمهور . كما ألّف مرجعاً شاملاً بعنوان : «مشنيه تُوراه» משנה תורה (أي الشريعة الثانية) ، كان الكتَبَة يتهافتون على استنساخه وانتشر انتشاراً عظيماً . وكذلك وضع عدّة مباحث فلسفيّة موجّهة ضدّ الإلحاد ، ومركّزة على إثبات أن الله خلق الدّنيا من العَدَم . ثم لمّا بلغ الرّجل الخمسين من العمر ، أتحف النّاس بمؤلّفه الأكبر الموسوم بـ : «مُوريه نَبوخيم» מורה נבוכים (دلالة الحائرين) باللّغة العربيّة ، نقله إلى العبريّة الرّابي يهوداه الحَريزي وذيّل عليه .

توفي مُوشيْه بن ميمون في سنّ السبعين ، فدُفنت عظامه في القاهرة بمصر[1] ، وبكاه اليهود وأبناء الأمم الأخرى على حدّ سواء . وكان الحُزن عليه بيروشَلايْم شديداً ، وتمّت إقامة صَوم צום ، وفتحت الكُنُس أبوابها حيث تمّت قراءة مقاطع من التُّوراه (سفر اللّيويين 25 : 12 حتى آخره) ، مع الأصحاح الخامس من سفر صموئيل الأول ، كجزء من صلاة ذلك اليوم[2] .

الرّابي أمنون من ماينْتْس
רבי אמנון איש־מינתץ

أثناء ولاية أحد أساقفة ماينْتْس[3] ، كان يعيش في المدينة رجل يهودي يُدعى الرّابي أمْنون . وكان ينتمي إلى أسرة رفيعة القدر وله مزايا شخصية عظيمة ، كما كان غنيّاً ويحترمه كلّ من الأسقف وبقيّة النّاس . كان الأسقف كثيراً ما يُلحّ عليه بترك اليهوديّة واعتناق المسيحيّة ، لكن دون أدنى جدوى . ثم في بعض الأيام من جرّاء الضغط عليه أكثر من المُعتاد ، ولكي يتملّص من إلحاح الأسقف ، قال على عَجَل : «سوف أفكّر بالأمر ، وأعطيك جواباً خلال ثلاثة أيام» .

---

(1) ينقل محمد بحر عبد المجيد (اليهود في الأندلس ، ص 90) أنه أسلم قبل موته ودُفن بطبريّا فكُتب على مقامه : «دُفن في هذا القبر مُوشيه بن ميمون الطّريد المحروم الكافر» !!

(2) وممّا يقول عنه اليهود : מאת משה לאת משה לא קם כמשה «من مُوشيْه (النّبي) إلى مُوشيه (بن ميمون) لم يظهر كمُوشيْه» .

(3) ماينتس Maintz مدينة بجنوب غرب ألمانيا ، تقع على نهر الماين قبالة مدينة ڤيسبادن .

لكنه بمجرّد أن خرج عن الأسقف شعر بغصّة في قلبه ، وراح ضميره يؤنّبه بشدّة على إبدائه ، ولو على هذا النّحو المُصطنع ، أدنى شك بخصوص الدّين القويم . فبلغ بيته والأسى يتملّكه ، ولمّا قُدّم له اللّحم أبى أن يأكل ، ولمّا أتى أصحابه لزيارته واستفسروا عن سبب كآبته ، رفض ما أبدوه من مُواساة ، قائلاً : «تراني أنزل قبري باكياً على هذا الكلام» . وفي اليوم الثالث ، فيما كان لا يزال يتحسّر على تنازله الأرعن ، أرسل إليه الأسقف ، فرفض تلبية دعوته .

وعقب أن رفض تلبية دعوة رُسُل الأسقف مراراً ، صدر إليهم الأمر أخيراً بالقبض عليه ، وإحضاره بالقوّة بين يديّ الأسقف .

قال الأسقف : «أمنون ، لماذا لم تحضر إليّ كما وعدتَ ، لتخبرني عن قرارك فيما يخصّ طلبي ؟» .

أجاب أمنون : «ذَرني أتفوّه بعقوبتي بنفسي على هذا الإهمال . فها هو لساني الذي تفوّه بهذا الكلام الأرعن المتشكّك ، فليُقطع . لقد كذبتُ عليك ، فإنني لا أنوي أبداً التفكير بعرضك» .

قال الأسقف : «لا ، سوف لن أقطع لسانك ، بل إن قدميك اللتين أحجمتا عن القدوم إليّ سوف تُقطعان ، وباقي أعضاء جسدك العنيد سوف تُعذّب أيضاً وتُعاقب» .

وتحت أنظار الأسقف وبأمره ، تمّ قطع أصابع قدمي الرّابي أمنون كلّها ، وبعد أن تمّ تعذيبه بشدّة أُرسل إلى بيته بعربة ، وإلى جانبه أعضاؤه المبتورة .

وتحمّل الرّابي أمنون كل ذلك بمُطلق الرّضا ، ولديه كامل الأمل والثّقة بأن هذا العذاب الدّنيوي سوف يلتمس له المغفرة لدى الله .

كانت بقيّة حياته بالطبع عقب ذلك رهن أيّام معدودة . وحَلّ عيد رأس السنة «رُوش هَشَّناه» ראש השנה ، وكان لا يزال على قيد الحياة ، فرغب بأن يُحمل إلى الكنيس . وتمّ نقله إلى بيت الله ، وخلال أداء الصّلاة رغب بالسّماح له بتلاوة دُعاء . فكان كلامه ، الذي تبيّن أنه الأخير ، كما يلي :

«إنني لأُسبّح بالقداسة التّامة لهذا اليوم ، فهو مُذهل وجليل . إنّ ملكوتَك يا ربّ يتجلّى فيه ، وإنّ عَرشُك مُقامٌ على الرّحمة ، وعليه تستقرّ بالحقّ . أنت الحَكَم الذي يُجازي ، ولا يخفى على علمك أيّ شيء . فأنت الشاهد والكاتب والمُقرّ والمدوّن ومتذكّر كل شيء بالحقّ ، حتى مَن نَحسبُهم دُفنوا قديماً في الماضي . أنتَ تفتح الكتاب المسطور ، وتأمر بنفخ الشُّوفار שופר (الصُّوْر) ، فترتعد حتى الملائكة ، فتصيح عالياً : «يوم الدّين بنا قد حَلّ» ، ففي الدّينونة ليست الملائكة عن الخطأ بمعصومة» .

«كلّ مَن دخل الحياة الدّنيا أمامك يجُوز ، تماماً كما يجعل الرّاعي القطيع الذي يعدّه يمرّ تحت صخرته ، فإنّك يا ربّ تأمر كل روح حيّة بالمرور أمامك . أنت تعدّ ، وأنت تتفقّد ، وتُعيّن نواقص كل مخلوق بحُكمك وأمرك» .

«في رأس السنة يُكتب وفي يوم الغُفران يُقرّر . أجل ، كل أوامرك تُسجّل ، مَن يحيا ومَن يموت . أسماء مَن يلاقون حتفهم بالنّار ، أو بالغرق ، أو بالسّيف ، أو بالجوع ، أو العطش ، أو بالطّاعون ، كلّها مدوّنة لديك . وكل مَن يلاقون الأمان ، وكل مَن يلاقون النّقمة . وكلّ مَن يلاقون العذاب ، وكل مَن يُباركون بالدّعة . وكلّ مَن يُقدّر لهم النّعمة ، ومَن يحلّ بهم البلاء . ومَن سيكونون من الأغنياء ، ومَن من الفقراء ، ومَن يُعزّون ومَن يُذلّون . غير أن التّوبة والدُّعاء والإحسان يا ربّ ، قد تُبعد كل مصيبة مُقدَّرة !» .

فلمّا اختتم هذا البيان ، الذي صاغه للاعتراف بذنبه وبعدالة الجزاء الذي أصابه ، خمدت أنفاس الرّابي أمنون ، ومات على نحو لائق في بيت الله ، ما بين بني يسرَئيل المتجمّعين فيه .

لتبقى تقوى الرّابي أمنون ذكرى عطرة في بني يسرَئيل[1] ، وليجهدنّ كلٌّ منا أن يحتذيها بالخير ، آمين .

* * *

(1) عاش أمنون في القرن العاشر ، وقصّته ترد بكثرة لتربية النّاشئة في المدارس اليهوديّة .

الفصل الثاني

تعاليم الحاخاميم

فضيلة الإحسان

حسب أمثال السَّلَف الصّالح ، يُعدّ الإحسان من الركائز التي يستند إليها العالم . فيقولون : «بقاء العالم يقوم على فضائل أشياء ثلاثة : الشّريعة ، توحيد الله وعبادته ، والإحسان الفعّال» . وأسفار الشّريعة الخمسة (التُّوراه) تبتدئ وتختتم بإحسان ، كما هو مكتوب : «وصَنَعَ الربّ الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما» (التكوين – 3 : 21) ، وكذلك : «ودَفَنَهُ – أي الله –» (تثنية – 34 : 6) . وإن تأديّة معروف أو فضل تجاه إنسان تتبدّى في الإحسان إليه دون أي توخٍّ أو رغبة بالحصول على مقابل ، ويمكن تأديته في حالتين : التكرّم بفضل على شخص ليس له علينا فضل سابق ، أو تأدية خدمة أو فضل لشخص رغم كون ذلك يترتّب عليه استجرار قدر من المشقّة علينا ومن الكسب له أكبر ممّا يستحقّ . والرّحمة المذكورة في أسفار التُّوراه هي ما يُقدّم دون مقابل ودون رفض من طرف الشخص الممنوحة إليه . والصَّدَقة كذلك نوع من الإحسان ، لكنه يوجّه فقط إلى الفقراء والمحتاجين ، أما الإحسان ذاته فيمكن توجيهه على حدّ سواء إلى الفقير والغني ، وإلى ذي الشأن والوضيع . حتى أن بوسعنا أيضاً أن نمارس الإحسان تجاه الأموات بأن نحضر شعائر جنازتهم ، وهذا هو عين الرّحمة والصّدق . فإن تكرّمنا على امرئٍ ما ، من الممكن عبر توالي الأيام أن يقوم بردّ الجميل ، أما الإحسان تجاه الأموات فهو منتهى الرّحمة ، إذ أنه غير قابل للردّ . وفي ثلاثة أمور يكون الإحسان خيراً من الصَّدَقة : فقد يتمّ تأدية الإحسان عن طريق المال ، أما الإحسان فبالمال أو بغيره . والصَّدَقة موجّهة للفقير فحسب ، أما الإحسان فللفقير والغنيّ . والصَّدَقة تتمّ للأحياء ، أما الإحسان فللأحياء والأموات .

«خلف الرّبّ إلهك تمشي» . فكيف يكون بإمكاننا أن نمشي خلف الله ؟ إن ذلك يكون من خلال اتّباع صفاته واحتذاء أفعاله . الله كَسَى جسد الإنسان العاري ، كما هو مكتوب : «وصَنَعَ الرّبّ الإله لآدم وامرأته أقمصةً من جلد وألبسهما» ، فلذا علينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عادَ المريض : «تجلّى الله له في غياض مَمْرا» (وذلك بعد ختانه مباشرةً) ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عزّى النّائح بحِداد «وحدث بعد موت أبرَهام أن الله بارَك ابنه يصحاق» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله دَفَنَ الميت ، كما هو مكتوب : «ودَفَنَهُ – أي الله –» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . وإن حضور جنازة الميت وتشييع جُثمان إخواننا الرّاحلين إلى مثواهم الأخير ، لهو عمل خير لكلّ من الحيّ والميت ، أي للرّوح الرّاجعة إلى بارئها وللمشيّعين على حدّ سواء .

قال الرّابي يهوداه : «إذا انتحب شخص ما وناح على نحو زائد لوفاة أحد أقربائه ، فإن حزنه يُضحي نوعاً من التّذمّر على مشيئة الله ، وهذا ما يؤدّي به إلى أن ينوح قريباً على وفاة عزيز آخر» . بل علينا أن أن نتقبّل أمر الله ، ونقول كما قال أيوب : «الرّب أعطى والرّب أخذ ، فتبارَك اسمُ الرّبّ»[1] .

وحُسن الضيافة صفة أخرى من صفات عمل الخير . لقد قيل عن أبرَهام : «وغَرَس حديقةً» . فهذه ليست حديقة عادية بالمفهوم الذي نعرفه ، وإنما هي نُزُل ضيافة . وفتح أبرَهام بيته لعابري السّبيل ، وقدّم لهم القُوت بكل كرم . وكان لمّا يشكره الضيوف على أريحيته يجيبهم : «لا تشكروني ، إذ أنني لست مالك هذا المكان ، بل اشكروا الله خالق السّموات والأرض» . وبهذه الطريقة أشاع اسم الله بين الوثنيين . ولذلك أعطانا مثالاً في كرم الضّيافة علينا أن نحتذيه ، كما هو مكتوب في أمثال الأجداد : «فليكن بيتُك مفتوحاً كملجأ ، وليلاقي الفقير مأواه بين جدرانه بكرم وطيب» . فعندما يدخل أولئك بيتك فتلقّاهم بعين السّماح وعاجل ببذل خبزك وملحك أمامهم . فلعل الفقير يكون جائعاً ، ويحجم مع ذلك عن طلب الطعام .

---

(1) الترجمة العربية من سفر أيوب (1 : 21) : «الرّبّ أعطى والرّبّ أخذ ، فليكُن اسم الرّبّ مباركاً» . ولا نجد من داعٍ للالتزام بنصّها ، بل يمكن الخروج بما هو خير منها .

وحتى إن كان ثمّة كثيراً من المزعجات التي تؤرّق ذاتك ، فعليك أن تخفي شؤونك عن ضيوفك ، وعليك أن تواسيهم إن كانوا بحاجة إلى الكلم الطيّب ، ولكن لا تُلق بمشاكلك الخاصّة أمامهم . وتذكّر كم تصرّف أبرَهام بلُطف أمام الملائكة الثلاثة وهو يحسبهم من بني البشر ، وكم عاملهم بحُسن الضيافة ، قائلاً : «يا أسيادي إن كنتُ وجدتُ نعمةً في أعينكم فلا تتجاوزوا عبدكم ، إلخ» (سفر التكوين – 18 : 3) . عليك أن تكون على الدّوام ودوداً ، وعندها إذ تدعو الله يستجب لك .

والله يعرف إن كان القلب الذي يتّجه إليه بالدُّعاء قد أدّى إليه كل ما بوسعه من إمكانات . فخلال المدّة التي كان فيها الهيكل قائماً ، كان الله يتلقّى بالنّعمة ذاتها قربان التّقدمة ممّن يقدّم حفنة من الطحين أو ثور أضحية . ولذا فالآن أيضاً تُعدّ تقدمة الفقير مقبولة بالدّرجة ذاتها التي تُقبل بها أقصى تقدمة يمكن للغني أداؤها ، إذا كان القلب صافياً منحازاً إلى الرّبّ .

قيل إن الرّابي طَرفون טרפון ، رغم كونه غنياً للغاية ، ما كان محبّاً للصّدقة بالنّظر إلى إمكاناته الماديّة . فيوماً ما ، قال له الرّابي عَقيبا עקיבא : «ألعلّك تودّ أن أستثمر لك مالاً في تجارة العقارات ، على نحو مُربح للغاية ؟» . فأجاب الرّابي طَرفون بالقبول ، وجلب للرّابي عَقيبا أربعة آلاف دينار ذهباً ، لتُنفق على ذلك . فما كان من الرّابي عَقيبا إلا أن قام على الفور بتوزيع هذا المبلغ على الفقراء . وبعد مضي مدّة من الوقت ، صادف الرّابي طَرفون المذكور الرّابي عَقيبا ، فسأله عن موضع العقار الذي ابتاعه له . فاصطحب عقيبا صديقه إلى المدرسة ، وأراه صبياً صغيراً راح يقرأ لهما المزمور رقم 112 ، إلى أن بلغ الآية التاسعة : «فَرَّقَ أعطى المساكين ، بِرُّه قائمٌ إلى الأبد» .

«هناك» ، قال عَقيبا ، «مُلكُك مع داود ملك يسْرَئيل ، الذي قال : «فَرَّقَ أعطى المساكين» » . سأل طَرفون : «فلماذا فعلتَ ذلك ؟» .

أجاب عَقيبا : «ألا تدري بأن نَقديمون بن جُورْيُون جُوزي لأنه لم يُعطِ بحسب ما يملك من إمكانات ؟» .

أجاب الآخر : «أجل ، ولكن لِمَ لم تقل لي ذلك ؟ ألم يكن بوسعي أن أفرِّق ما لدي بغير مساعدتك ؟» .

«لا» ، قال عَقيبا ، «فهي فضيلة أعظم عندما يُعطي المرء شخصاً آخر ليفرِّق عنه ، بدلاً من أن يفرِّق هو بذاته» .

فمن خلال هذه القصّة نتعلّم بأن مَن لم يقدِّم الصَّدَقة بحسب إمكاناته سوف يلقى جزاءه وِفاقاً .

في مرّة من المرّات ، كان الرّابي يُوحَنان بن لَكّاي راكباً بظاهر يروشَلايْم ، وكان تلامذته يتبعونه . فشاهدوا امرأة فقيرة تتتبّع الحَبّ الذي يسقط من أفواه وجوالق ماشية تَرعى ، تعود للعرب . فلمّا أبصرت بالرّابي ، خاطبته بهذه العبارة المقتضبة : «يا رابي أغثني !» ، فأجاب : «يا ابنتي ، ابنة مَن أنتِ ؟» .

أجابت : «أنا ابنة نَقديمون بن جُوريون» .

فسأل الرّابي : «كيف ؟ ماذا جرى لمال أبيكِ ؟ ذاك المال الذي نِلتِه نِحْلةً يوم زواجكِ ؟» .

قالت : «آه ، أليس ثمّة مَثَلٌ في يروشَلايْم يقول : «المال يعوزه الملح» ؟»[1] .

فتابع الرّابي كلامه : «ومال زوجكِ ، ما جرى له ؟» .

«الآخر تبع الأوّل» ، أجابت المرأة ، «قد أضعتُ الاثنين» .

فالتفتَ الرّابي إلى تلاميذه وقال : «أذكُر عندما أمضيتُ عَقد زواجها ، أن أباها نَحلَها صَداقاً يبلغ ألف ألف دينار ذهباً ، كما كان زوجها بالإضافة إلى ذلك رجلاً غنياً» .

ورقّ قلب الرّابي للمرأة ، وتصدَّق عليها ، وبكى لحالها . وقال : «يا بني يسرَئيل ، طُوبى لكم ما دُمتُم تنفّذون وصيّة الرَّبّ ، فلا يطالكم شرّ . وأمّا إن توانيتُم عن الالتزام بأوامره ، فالبهائم خيرٌ منكم» .

---

(1) أي أن الملح يلزم لحفظ اللحم ، وبغيره يفسد . فكذا الصّدقة للمال بمثابة الملح للّحم .

ومَن يستنكف عَن أداء الصَّدَقة يقترف ذنباً عظيماً ، وهذا ما برهنته قصّة حياة الرّابي ناحُوم . كان ناحُوم ، مهما أصابه من صُروف الدّهر ونكباته ، معتاداً على القول : «هذا كلّه لخيرٍ أراده الله» . ولمّا أسنّ أمسى ضريراً ، وبُترت يداه ورجلاه ، وكان جذعه مبتلىً بالقُروح الأليمة . قال له تلاميذه : «ألستَ امرء صلاح وتُقى ، فما دعوى بلواك ؟» .

أجاب : «تَرَون ، هذا ما استجررتُه على نفسي ولم أُظلَم . ففي بعض الأيام كنت مُرتحلاً صوب بيت نسيبي أبي امرأتي ، ومعي ثلاثون جحشاً محمّلاً بالمؤن والخيرات ، فصاح بي رجل من قارعة الطريق : «يا رابي أغثني !» ، فقلت له ليتريّث ريثما أُنزل حمولة الجحاش . فلمّا تمّ الأمر وفرغتُ من تنزيل الأحمال عن دوابي ، ألفيتُ لشقوتي وبلواي الرّجلَ سقط وهلك لشدّة الجوع والإعياء . فارتميتُ على جثّته ورحتُ أنتحبُ بمرارة ، وقلتُ : «العينان اللتان لم ترقّا لحالك ليكُن مصيرهما العَمى ، واليدان اللتان تلكّأتا عن معونتك ليكُن مصيرهما البَتر ، مع الرّجلين اللتين أحجمتا عن إغاثتك» . وفوق ذلك ، لم أكتف حتى دعوتُ بأن يُصاب بدني كلّه بالقُروح الأليمة . والرّابي عَقيبا قال لي : «واهاً لي وويلاً إذ أراك في هذه الحال !» ، لكنني قلتُ له : «بل ليُسعدك أن تراني في هذه الحال ، لأنني من خلالها أرجو أن يُغفر لي ذَنبي ويُمحى ، وأن تبقى حسناتي في ميزان أعمالي ، لكي أحوز نعمة الحياة الأبديّة في الآخرة» » .

* * *

عندما أبصر الرّابي يَنّاي رجلاً يهب الصَّدَقات في مكان عام ، قال : «كان خيراً لك ألا تُعطي على الإطلاق ، من أن تُعطي الصَّدَقات بهذا الشكل العَلَني وتعرِّض الفُقراء للذُّلّ والمهانة . فخيرٌ للمَرء أن يتلظّى في نار مُوقدة من أن يتسبّب في مَذَلّة النّاس» .

ويصرّ الرّبّانيون ويؤكّدون على أن علينا أن نتجنّب قَصر عمل الصَّدَقة على شعبنا فحسب ، لأن شريعة مُوشيه تحضّ على الرِّفق بالغُرباء المقيمين بين ظهرانينا وإكرامهم . وحتى البهائم لم تُغفَل في دُستوره الفائق الرّحمة .

قال الرّابي يهوداه : «لا يجلسنّ أحدكم إلى طعامه ، حتى يطمئنّ إلى أن جميع الحيوانات العائدة إلى رعيّته قد نالت قُوتَها» .

وكان الرّابي يُوحَنان قال بإنه يحسُن في نظر الله أن نكون طيّبين وكُرماء تجاه الغُرباء ، بالدّرجة ذاتها التي يحسُن بها في نظره أن نبكّر في الفجر لدراسة شريعته ، وذلك لأن الخصلة السّالفة ليست إلا تطبيقاً مَحضاً لشريعته . وقال كذلك : «مَن كان رَفيقاً بأبناء قومه تُغفَر له ذُنوبُه» .

وكان كلّ من هذا الرّابي والرّابي أبّا قالا بأن من الخير إقراض الفقراء بدلاً من إعطائهم ، لأن ذلك يعصمهم عن الشعور بالمَهانة من فقرهم ، وهو بالحقّ أسلوب معونة لهم أكثر إحساناً . والرّبّانيّون يُرشدون على الدَّوام بأن الرِّفق هو أكبر من مجرّد إعطاء الحَسَنات ، ذلك بأنه يضمّ كَلِماً طيّباً يفوق بكثير قيمة الدَّعم المادّي المُجرَّد .

فضيلة التّواضُع

نجد في الكتاب المقدّس عدّة أمثلة على مدى رضا الخالق عن خلقه عندما يتمثّلوا فضيلة التّواضع وخَفض الذّات . ولقد كان أسمى أجدادنا شأناً هم أولئك المنزّهون بالكلّيّة عن الغُرور والخُيَلاء .

فأبرَهام ، النّقيّ السّريرة ، كان يُدرك تماماً أنه لم يكُ سوى شيء من تُراب الأرض ، ولمّا خاطبه أبناء حِتّ بلقب «رئيس من الله»[1] سجد لهم .

وها هما مُوشيْه وأهَرُون ، رئيسا شعب يسرَئيل ، يقولان : «وما نكون نحن ؟» . وبدلاً من أن تستبدّ الغيرة بمُوشيْه عند سماعه بأن رجلين كانا يتنبّآن[2] في المخيّم ، إذا به يقول بتواضع جَمّ : «يا ليت كلّ شعب الرَّبّ كانوا أنبياء» (سفر العدد – 11 : 29) .

---

(1) انظر سفر التكوين – 23 : 6 .

(2) هذان هما إلداد وميداد اللذان تنبّآا أثناء تيه سيناء . انظر سفر العدد – 11 : 26 .

ولمّا راح داوِد يكرّس لخدمة الله الأشياء الثمينة التي جمعها لأجل الهيكل ، قال بكل تقوى : «ومن يدك أعطيناك» (أخبار الأيام الأول 29 : 14) .

ومن الله الأزلي العظيم ذاته نتعلّم التّواضع ، فمن على جبل سيناء اختار تنزيل وصاياه ، وهذا الجبل ليس أعلى الجبال على الإطلاق . وكذلك خاطب مُوشيه لا من شجرة سامقة بل من شُجيرة واطئة . ولمّا كلّم إلياهو[1] ، جعل الرّياح تثور ، والأرض تتزلزل ، والنّار تستعر ، أما بالنسبة إليه فقد اختار «صَوتاً مُنخفضاً خفيفاً» (سفر الملوك الأول 19 : 12) .

قال الرّابي هُونا : «مَن كان الغُرور يملأ قلبه فهو مُذنب كالوثني» .

وقال أبيرا : «مَن كان مغروراً فجزاؤه الاتّضاع» .

وقال حِزقياه : «دُعاء المغرور قاسي القلب وصَلاته لا تُسمع» .

وقال الرّابي آشي : «مَن يُقسّي قلبه بالغُرور ، فإنما يُوهي به عقله» .

وقال الرّابي يَهوشُوَع : «التّواضع خير من التّضحية» ، لأنه أليس مكتوباً : «ذبائح الله هي رُوحٌ مُنكسرةٌ ، القلبُ المُنكسر والمُنسحق يا الله لا تحتقره»[2] ؟

فضيلة تقوى الله

قال ابن الرّابي هُونا : «مَن كان لديه علمٌ بشريعة الله دون أن يخافه ويتّقيه ، فهو كمن أوكلت إليه المفاتيح الدّاخلية لخزنة مال ، دون المفاتيح الخارجية» .

وقال الرّابي ألكسندر : «مَن كانت لديه حكمة دنيوية وكان لا يخشى الرّبّ ، هو كمَن ينوي بناء بيت ثم لم يكمل سوى بابه ، لأنه كما كتب داوِد الملك في المزمور 111 : «رأسُ الحكمة مَخافة الرّبّ» .

---

(1) النبي إلياهو يُدعى أيضاً : «إيليّا» ، وهو في التّراث الإسلامي : «إلياس» عليه السلام ، بالصّيغة اليونانيّة للاسم : Ελιας . ونذكّر دوماً أن مردّ ذلك أن التّوراة الشائعة في عصر تنزيل القرآن الكريم كانت باليونانية حصراً ، أي التّرجمة السبعينية السكندريّة .

(2) سفر المزامير – 51 : 17 .

عندما كان الرّابي يُوحَنان[1] مريضاً ، زاره تلاميذه وطلبوا منه مُباركته . فقال الرّابي بصوته المُحتضر : «أدعو لكم بأن تخافوا الله كما تخافون البشر» . فقال التّلاميذ : «مَه ! ألا يجدر بنا أن نخاف الله أكثر من البشر ؟» .

أجاب الحكيم : «إنه لمن دواعي سروري أن أرى أعمالكم تدلّ على أنكم تخافون الله بهذا المقدار حقاً . فعندما تأتون شيئاً إمْراً فإنكم تتحرّون ألا تكون عين بشر قد اطّلعت عليكم ، إذاً فعليكم أن تتحرّوا الأمر عينه وتخشوا الله الذي يطّلع على كل شيء ، وفي كل مكان ، وفي كل زمان» .

ويقول أبّا إن بإمكاننا إظهار مدى خشيتنا لله من خلال معاملاتنا بين بعضنا . فيقول : «فلتخاطبوا النّاس باللّين والرِّفق ، واعملوا على قمع الغضب ، واجنحوا إلى السِّلم وتحرّوه أينما ثقفتموه مع إخوانكم ومع النّاس أجمعين ، وبهذه الواسطة تكسبون تلك «النّعمة والفهم الحَسَن في عيني الله والنّاس» ، اللّتين نالهما شلومو بكل جدارة» .

كان الرّابي يُوحَنان سمع الرّابي شمعون بن يُوحاي ، وهو يصوّر على شكل قصّة هذه الآية من سفر يشَعْياه : «لأني أنا الربّ مُحبّ العَدْل ، مُبغض المُختلِس بالظُّلم»[2] .

يُروى أن ملكاً استورد إلى مملكته بضاعة ما ، يضع في العادة عليها رسوماً ، فأمر عُمّاله عندما يجتازون بدار المكوس أن يتوقّفوا ويدفعوا الرّسوم المُعتادة . فلمّا استبدّت بهم الدّهشة ، خاطبه خُدّامه بهذا الكلام : «مولاي ، هذه البضائع كلّها تعود إلى مُلك جلالتكم ، فلماذا يتعيّن أن يُدفع عنها ما سيؤول بالنّتيجة إلى خزانتكم ؟» .

أجاب الملك : «هذا لأنني أودّ حمل التجّار المسافرين على أن يتعلّموا من وراء العمل الذي آمركم الآن بتنفيذه كَم أن الكذب والمخادعة خصلتان مَقيتتان مبغوضتان في عينيّ» .

---

(1) أي الرّابي يُوحَنان بن زَكّاي ، مؤسّس مركز السَّنْهَدرين في يَبنى بعد خراب الهيكل 70 م .
(2) سفر يشَعياه – 61 : 8 .

فكذلك هو الأمر فيما يخصّ معاملة الله العظيم لنا ، على اعتبارنا كحُجّاج زائرون في هذه الحياة الدّنيا . فرُغم أن كل ما نملك يعود بالأصل إليه ، فهو يزيده ويُثمره باستمرار ، بُغية زيادة سعادتنا الدّنيوية المؤقّتة . ولذا فإن تصوّر أحدٌ ما أن من الممكن خداع النّاس بُغية تقديم الهبات لله ، ممّا هو حصراً له ، يكون مصيره التّقريع في نصّ الكتب المقدّسة ، حيث أن الله العادل يُدين هذا الفعل ، ويعدّه شائناً .

من خلال ذلك نستطيع أن نستنتج مثلاً ، أن سُعف النّخل المسروقة لأجل استعمالها في تنفيذ الشّعائر المنصوص عليها في عيد «سُكّوت» (المظال)[1] ، هي غير مُلائمة للاستعمال شرعاً ، بسبب الطريقة المشبوهة وغير المشروعة التي تمّ عبرها الحصول عليها .

قال الرّابي إليعيزَر : «مَن كان الصّلاح والاستقامة يوجّهان أعماله كلّها ، فليكن على يقين بأن يتتبّع مثال الله في إحسانه الغير محدود . لأننا نقرأ عنه (تبارك اسمه) : «يحبّ العدل والاستقامة»[2] ، أي امتلأت الأرض من رحمة الرّبّ»[3] . ولكن هل نظنّ أن اتّباع مثل هذا المنهج أمر يسير هيّن ؟ بالطبع لا ! إن فضيلة الإحسان لا يمكن التوصّل إليها إلا ببذل جهود عظيمة . ومع ذلك ، فهل يصعب على مَن كان يضع تقوى الله نُصب عينيه أن يحصل على هذه المزيّة ؟ لا ، بل يمكن تحصيلها بيسر لمَن كانت أعماله كلها تنبع عن تقوى الله ومَخافته .

«الشيبةُ تاجُ نعمة ، مادامَت على طريق البِرّ»[4] . هكذا علّمنا شلومو في أمثاله . ومن خلال ذلك ، كان عدّة ربّانيين طعنوا في السّنّ قد سألهم تلامذتهم عن السبب المحتمل الذي نالوا بموجبه هذه البُشرى على الكرامة الإلهيّة . فأجاب الرّابي نِحوماه حول ذلك بما يخصّ نفسه ، بأن الله قد أنعم عليه بإدراك ثلاثة مبادئ ، تمثّلها وجهد في السّير عليها لإصلاح شأنه .

---

(1) سيرد ذكر هذا العيد في آخر الكتاب .
(2) سفر المزامير – 11 : 7 .
(3) سفر المزامير – 33 : 5 .
(4) سفر الأمثال لشلومو بن داوِد الملك – 16 : 31 .

فأولها : أنه لم يعمد البتّة إلى رفع مقامه على حساب اتّضاع جيرانه . وهذا الأمر مُستحسَن وفق المثال الذي وضعه الرّابي هُونا ، لأن هذا الأخير حينما كان يحمل على كاهله مجرافاً ثقيلاً ، صادفه الرّابي حُوانا بن حَنيلاي ، فلمّا شعر بالعبء المُضني والحاطّ من شأن هذا الرّجل الرّفيع القدر ، أصرّ على مساعدته في حمل الآلة لتخليصه من عبئها . غير أن الرّابي هُونا رفض ذلك قائلاً : «لو كانت هذه صنعتُك الأساسية لربما تركتُك تفعل ، ولكنني بالتأكيد سوف لن أدع أحداً يقوم بأمر ، إن قمتُ أنا به بنفسي قد يُنظر إليه على أنه وضيع» .

وثانيها : أنه لم يأوِ البتّة إلى نوم ليله وفي قلبه أيّ حقد على أحد ، على نحو العادة التي يتّخذها مار سُطرا ، الذي يتلو الدّعاء التالي قبل نومه : «يا ربّ اغفر لمن أساء إليّ !» .

وثالثها : أنه ما كان بخيلاً ، بل يقتدي مثال أيوب الصّالح ، الذي يروي الحكماء عنه أنه كان يرفض أخذ ما يتبقّى له من مال حينما يبتاع شيئاً .

وثمّة رابي آخر ، اسمه أيضاً نحوماه ، أجاب الرّابي عَقيبا بأنه يظنّ نفسه قد أُنعم عليه بحياة مديدة لأنه في خلال وظيفته الرّسميّة قد وضع نُصب عينيه عدم قبول الهدايا ، متمثّلاً في ذلك ما كتبه شلومو : «ومَن يكره الهدايا يعيش»[1] . ومن مزاياه الأخرى برأيه عدم تحامله على مَن يسيء إليه ، متمثّلاً كلام رابّا : «مَن كان مُتسامحاً حيال عثرات النّاس ، عامله الدّيّان الأكبر بالرّأفة» .

وقال الرّابي زيرا إن نعمة بلوغ سنّ الشيخوخة بالنّسبة إليه ، بفضل الله ، هي نتيجة سلوكه في حياته . فلقد كان يعامل أهل بيته بالرّأفة والرّفق ، وكان يُمسك عن تقديم رأيه على مَن يفوقه بالحكمة ، وكان يتجنّب ترديد كلام الله في الأماكن غير المنزّهة عن النّجاسة . وكان يشتمل بالتّفلّين طوال النّهار ، ليتذكّر على الدّوام واجباته الدّينيّة . ولم يكن يتّخذ المدرسة ، حيث تُدرّس العلوم المقدّسة ، مكان راحة للنّوم مثلاً ، لا بشكل عارض ولا مُعتاد . وهو لم يبتهج قطّ بموت أحد ، ولم يُسمِّ أحداً باسم يعافه هو أو آله الذين ينتمي إليهم .

---

(1) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك – 15 : 27 .

فريضة إكرام الأبوين

يضع الكتاب المقدّس الأبوين بمنزلة موازية لمنزلة الله العليّ ، من حيث الاحترام والتّكريم . وتنصّ الوصايا العشر على مبدأ : «أكرم أباك وأمّك» ، كما جاء أيضاً في متن الكتاب : «أكرم الله من مالك» . وكذلك فإن «فخَف الآن من أبيك» ، و«تخافوا الربّ إلهكم» هما من الوصايا الإلهية ، بينما نرى أن جزاء الابن العاقّ الذي يبادر بالخطيئة إما إلى أبويه الأرضيين أو تجاه الأب الأعظم للكون هو الجزاء عينه ، تماماً كما هو مكتوب : «مَن يلعن أباه وأمّه فجزاؤه القتل» ، وأيضاً : «كلّ إنسان يجدّف على الله بالباطل يحمل وِزر موته على عاتقه» .

ويقول الرّبّانيّون : «للإنسان ثلاثة رفاق في حياته : الله ، وأبوه ، وأمّه» . والله يقول : «مَن يُكرم أبويه فقد أكرمني ، كما لو كنت معه مُقيماً» .

قال الرّابي يهُوداه : «إن طُرُق الإنسان معروفة ومكشوفة . كالأمّ تلاطف طفلاً بالكلمات الرّقيقة والأساليب الحنونة ، فتكسب التّكريم والمحبّة . ولذلك فالكتاب المقدّس يقول : «أكرم أباك» ، قبل عبارة «أكرم أمّك» . وأمّا بخصوص الخشية ، فبما أن الأب هو مُلقِّن الابن ومَن يعلّمه الشّريعة ، فالكتاب المقدّس يقول إذاً : «ليخشَ كلّ إنسان أمّه» ، قبل عبارة «أبيه» » .

سُئل الرّابي أُوْلاّ مرّةً : «فما هو إذاً مدى هذا التّكريم الواجب إيلاؤه تجاه الأبوين ؟» .

فأجاب : «اسمعوني فأروي لكم كم تمّ إيلاء هذا الواجب من قِبَل رجل وثني ، هو داماه بن نتينا . كان الرّجل تاجر جواهر ، فرغب الحاخامون يوماً بابتياع جوهرة منه لأجل الثّوب الحبري (الإيفود אפוד) الخاصّ بكبير الكهنة . فلمّا وافوا منزله ألفوا مفتاح الخزنة التي يحتفظ فيها داماه بالجوهرة مودعاً مع أبيه ، وكان آنذاك نائماً . ورفض الابن رفضاً قاطعاً إيقاظ أبيه للحصول على الجوهرة ، رغم أن الحاخامين النّافذي الصّبر عرضوا عليه فيها ثمناً أعلى بكثير ممّا طلب . وفضلاً عن ذلك ، لمّا أفاق أبوه فسلّمهم الجوهرة ونقدوه الثّمن الباهظ الذي بذلوه ، اقتطع منه الثّمن الأول وردّ البقيّة قائلاً : «لا أتكسّب على حساب كرامة أبي» .

ليس بمقدور الإنسان دوماً أن يحكم على أعمال النّاس ، وحول موضوع إظهار الاحترام تجاه الأبوين من الأبناء ، قد لا يتمكّن عامّة النّاس من فهم حقيقة الأمر . فعلى سبيل المثال ، لربّما يقدّم بعض الأبناء أطيب الطعام لوالديه ، ومع ذلك يحقّ عليه حُكم الابن العاقّ ، بينما قد يُلجئ ابن آخر أباه إلى العمل الشاق ويستحقّ برغم ذلك الثّواب . فكيف يكون ذلك ؟

يُحكى أن رجلاً وضع طعاماً لذيذاً أمام أبيه ، وطلب إليه أن يأكل منه . فلمّا فرغ الأب من طعامه قال : «أي بُنيّ ، قد هيّأتَ لي ألذّ طعام ، فمن أين نلتَ هذه الأطايب ؟» .

فأجاب الابن بازدراء : «كُل كما تأكل الكلاب أيها العجوز ، وكفاك تطرح الأسئلة» .

فاستحقّ هذا الابن عقوبة العقوق .

ويُحكى أن رجلاً كان طحّاناً وكان أبوه يُقيم معه ، في فترة كان يُجبر فيها من لا عمل له أن يعمل بضعة أيام لصالح الحكومة . فلمّا شارف الوقت الذي ينبغي فيه طلب هذه الخدمة من العجوز ، قال له ابنه : «اذهب فاعمل بدلاً عني في الطاحون ، وأنا أمضي لأعمل من أجل الحكومة» .

وكان الابن قال ذلك بسبب أن مَن كان يعمل لأجل الحكومة كان يتعرّض للضّرب إن وُجد عمله غير مُرض ، فراح يفكّر : «خيرٌ لي أن أعرّض نفسي لاحتمال الضّرب من أن أضع أبي تحت هذا الخطر» . فلذلك ، استحق ثواب الابن «الذي يُكرم أباه» .

ويؤكّد الرّابي حِيّا على أن الله يفضّل التّكريم المبذول للأبوين على التّكريم المبذول له شخصياً . ويقول : «مكتوبٌ : «أكرم الربّ من مالك» ، فكيف يكون ذلك ؟ عبر بذل الصَّدَقات ، وفعل الخير ، ووضع الميزوزاه على عضائد بيتك ، وأن تنصب ظلّة لنفسك في عيد السُّكُّوت ، وما إلى ذلك . وهذا كلّه في حال كنتَ قادراً ، أما إن كنتَ فقيراً فإن الاستنكاف عن ذلك لا يُحتسب عليك بمثابة الذّنب أو الإهمال . غير أنه مكتوبٌ أيضاً : «أكرم أباك وأمّك» ، فهذا الواجب

مفروض على الغنيّ والفقير على حدّ سَواء لُزوماً . وحتى إن لزمكم الأمر لتأمين أوْدهما بتعاني الكدية (التسوّل) من باب إلى باب ، فافعلوا» .

وقال الرّابي أبّاهو : «قد اتّبع وَلَدي أبيني هذه الوصيّة كما ينبغي لها حقّ الاتّباع» .

كان لأبيني خمسة أبناء ، لكنه لم يكن يسمح لأيّ منهم بفتح الباب لجدّهم أو القيام على حاجاته عندما يكون هو ذاته في البيت . وكما كان يودّ منهم أن يكرموه هو في حياتهم ، كان يتعامل بالإكرام مع أبيه . في إحدى المرّات طلب منه أبوه كأس ماء ، فلمّا مضى لإحضارها غلب النّوم أباه فغفت عينه ، ولمّا عاد أبيني إلى الغرفة ، بقي واقفاً إلى جانب أبيه والكأس في يده إلى أن أفاق هذا الأخير وشرب الماء .

يسأل الرّبّانيّون : «ما هي الخشية ؟» و «ما هو الإكرام ؟» .

اخشَ أمّك وأباك ، بعدم الجلوس في مقعديهما وعدم الوقوف في مكانيهما وبالانتباه الشّديد لكلامهما وبعدم مقاطعة حديثهما . وكن مُضاعف الحذر من انتقاد أو محاسبة آرائهما وتناقض أفكارهما .

أكرم أباك وأمّك بالقيام بحاجاتهما ، وبتقديم الطعام والشّراب لهما ، وألبسهما ثيابهما واربط لهما حذائيهما ، في حال كانا عاجزين عن أداء ذلك وحدهما .

سُئل الرّابي إليعيزَر عن مدى الإكرام الواجب أداؤه تجاه الأبوين ، فأجاب : «خيرٌ لك أن تطرح مالك كلّه في البحر من أن تُغضبهما» .

وقال شمعون بن يُوحاي : «كما أن ثواب مَن يُكرم أبويه عظيم ، فكذلك هو عظيم عقاب مَن يهمل هذه الوصيّة» .

إن كل وصيّة في الكتاب المقدّس تحدّد مدى الثّواب الحاصل عن القيام بها ، فحول هذه الوصيّة بالذّات يُقال لنا : «لكي تطول أيامك على الأرض» ، ومغزى طول الأيام ليس في هذه الدّنيا فحسب ، بل وفي الآخرة أيضاً .

«الرّبّ خلقني أوّل طريقه» (سفر الأمثال – 8 : 22) . هذا يعني أن الله خلق الشّريعة قبل أن يخلق الدّنيا . فعديد من الحاخاميم جعلوا حياتهم سوداء كالغُراب الأسحم ، ومعنى ذلك أنهم يقسون على أنفسهم كما تقسو أنثى الغُراب على فراخها ، من خلال الدّراسة المستمرّة ، آناء اللّيل وأطراف النّهار .

قال الرّابي يُوحَنان : «أفضل الدّراسة هي التي تتمّ في اللّيل ، عندما يسود السّكون ، كما هو مكتوب : «وباللّيل تسبيحهُ عندي صلاةٌ»[1] .

وقال الرّابي لَكيش : «ادرسوا في النّهار وفي اللّيل ، كما هو مكتوب : «وفي ناموُسه يلْهَجُ نهاراً وليلاً»[2]» .

وقال الرّابي حُونان من مدينة صِفُوري[3] צִיפּוֹרִי : «يمكن لنا تشبيه دراسة الشّريعة بكومة كبيرة من التّراب ينبغي إزالتها . فالجاهل يقول : «هذا مُحال ! لا طاقة لي بنقل هذه الكومة الهائلة ، لذا سوف لن أبذل جهداً للمحاولة» ، أمّا مَن أوتي حكمةً فيقول : «سوف أنقل بعضها اليوم ، والمزيد غداً ، والمزيد بعد غد ، وعلى هذا النّحو بمضيّ الوقت أكون قد نقلتها بكاملها» » .

فهكذا هو شأن دراسة الشّريعة ، ترى التّلميذ الكسول يقول : «يستحيل عليّ أن أدرس الكتاب المقدّس . فكم هذا الأمر صعب : خمسون أصحاحاً[4] في سفر التّكوين ، وستّة وستّون في سفر إِشَعْياه ، ومئة وخمسون مزموراً ، إلخ . إن هذا فوق طاقتي بكثير» . غير أن التّلميذ المُجِدّ يقول : «سأدرس ستة أصحاحات في كل يوم ، وعلى ذلك تراني بمرور الوقت قد استوفيته بأسره» .

ونجد في سفر الأمثال (24 : 7) هذه العبارة : «الحِكَم عالية عن الأحمق» .

---

(1) سفر المزامير – 42 : 8 .
(2) سفر المزامير – 1 : 2 .
(3) مدينة بالجليل الأعلى (صَفّورية) نافست طبريّة كمركز ديني للجليل ، وصارت مدّة مقراً للسّنهدرين ، أقام بها يهوداه هَنّاسي . من أشهر التّنائيم فيها : يُوحَنان بن نُوري .
(4) عبارة الأصحاح ترجمة عربية اعتمدها تراجمة التّوراه لتسمية فصول الأسفار .

ويصوّر الرّابـي يُوحَنان هـذه الآيـة مـن الكتـاب المقدّس بتفّاحـة تتدلّـى مـن السّقف . فالأحمق يقول فيها : «ليس بوسعي نيل هذه الثّمرة ، فهي عالية جداً» ، أما النّبيه فيقول : «إنه ليمكن الحصول عليها بوضع درجة فوق أخرى حتى تصـير في متناول اليد» . ويقول الأحمق : «وحده النّبيـه بوسعه دراسـة الشّريعة بأكملهـا» ، فيجيبه النّبيه : «ليس عليك فرضاً لازباً أن تدرسها بأكملها» .

ويصوّر الرّابي ليڤي هذا الأمر بالقصّة التالية :

مرّة في الماضي استأجر رجل خادمين ليقوما بملء سلّة بالماء . فقال أحدهمـا : «لماذا عليّ أن أتابع هذا العمـل غير المُجدي ؟ فمـا إن أصـبّ الماء في الجهـة الواحـدة حتى يتسرّب في الجهة الأخرى ، ما هو جدوى ذلك ونفعه ؟» .

أما العامل الآخر ، الذي كان حكيماً ، فقال : «إن جـدواه ونفعه يكمنـان في المكافأة التي نتلقّاها على عملنا فيه» .

فهكذا هو شأن دراسة الشّريعة . قال بعضهم : «ماذا تنفعني دراسة الشّريعة طالما أن علي دوام المتابعة فيها وإلا نسيت ما تعلّمت ؟» ، غير أن آخـر أجـاب : «الله يُجزينا بالإحسان على نيّتنا التي في قلبنا ، حتى وإن كنا ننسى» .

وكان الرّابي زِعيرا قال إن أي حرف من كلمات الشّريعة قد لا نأبه له ، يكـون من شأنه في حال نقصه إبطال الشّريعة بأسرها . ففي سفر تثنية الاشـتراع نقـرأ (17 : 16) : «ولا يُكثّر له نساءً لئلا يزيغَ قلبُه» . ولقد انتهك شلومو هذه الوصيّـة ، وقـال الرّابي شمعون إن الملائكة قد رأت فعلته الضالّة فخاطبت الـذّات الإلهيّة قائلـة : «يـا مالك الكـون ، إن شـلومو قـد جعـل مـن شـريعتك كمثـل قـانون معـرّض للتّحريـف والنّقص . فلقد انتهك ثلاث وصايا ، هـي بـالتّحديد : «لا يُكثّر لـه الخيـل» ؛ «ولا يُكثّر له نسـاء» ؛ «وفضّةً وذهبـاً لا يُكثّر لـه كثيراً» » . فعندهـا أجاب الـرّبّ : «إن شلومو هالكٌ لا مَحالة من على وجه الأرض ، هو ومئة شـلومو آخر يـأتون بعـده ، وبرغم ذلك فإن أدنى حروف الشّريعة لا يحول ولا يزول» .

* * *

كان من عادة الرّبّانيين مراراً أن يستشهدوا ، بأسلوب المعنى المجازي ، بعدّة مقاطع من متن الكتاب المقدّس ، ومن بينها افتتاحيّة الأصحاح الخامس والخمسين من سفر يشَعْياه : «أيّها العطاش جميعاً هَلُمّوا إلى المياه ، والذي ليس له فضّة تعالوا اشتروا وكُلوا ، هَلُمّوا اشتروا بلا فضّة وبلا ثمن خَمراً ولبناً» .

فهذه الأشربة الثلاثة ، التي يُدعى النّاس إلى الحصول عليها بهذا النّحو ، تُعدّ لدى حاخامات بني يسرَئيل ممثّلة للشّريعة .

سأل أحد الرّبّانيين : «لماذا يُشبَّه كون الله بالماء ؟» .

على هذا السّؤال تمّ تقديم الجواب التالي : «كما أن الماء يجري من الأعلى (أي الجبل) ، ليصير إلى مكان مُنخفض (البحر) ، فهكذا هو شأن الشّريعة ، إذ أنها يُوحى بها من علياء السّماء ، ولا يمكن استحواذها إلا لمن كانت نفسه سَمحةً مُتواضعة» .

وسأل رابي آخر : «لماذا رُبطت كلمة الله بالخَمر واللّبن ؟» . فكان الجواب عليه : «بما أن هذه الأشربة لا يمكن حفظها في أوانٍ ذهبيّة ، بل حَصراً في أوانٍ من الفخّار ، فكذلك إن هذه العقول هي خير الأوعية والمكامن لعلوم الشّريعة ، وهي العقول التي توجد عادةً في الأجساد البسيطة غير المتكلّفة» .

لذا ، على سبيل المثال ، فإن الرّابي يهوشُوَع بن حَنَنْياه ، الذي كان بسيطاً للغاية في مظهره ، حاز على حكمة ومعرفة عظيمتين ، وكان من بين الكلمات المفضّلة لديه هذه : «رغم أن الكثيرين قد أظهروا مقداراً عظيماً من المعرفة ، بغضّ النّظر عن فتنتهم الشّخصيّة ، فلعلّهم لو كانوا أقلّ وسامةً ربما بلغ تحصيلهم العلمي شأواً أبلغ وأبعد» .

وثمّة سبب آخر لتشبيه كلمة الله بالأشربة المذكورة آنفاً ، وهي أنها بحاجة إلى رعاية وانتباه ، لئلاّ تُهرق أو يصيبها الفساد ، فعلى النّحو ذاته نرى أن معرفتنا بالكتاب المقدّس والتّراث الشفهي تحتاج إلى رعاية دائمة ، لئلاّ تضيع .

* * *

كما وتُشبَّه الوصايا بمصباح ، وتُشبّه شريعة الله بالنُّور . فنرى أن المصباح يفيض بالضّوء طالما كان فيه زيت وحسب ، وكذلك فإن مَن يلتزم بالوصايا يتلقّى ثوابه أثناء أداء هذه الوصايا . وأما الشّريعة فهي نُور دائم مُستديم لا ينقطع ، وهي حرزٌ وحصن دائمان لمَن يتدارسها ، كما هو مكتوب :

«إذا ذهبتَ [فإن الشّريعة] تهديكَ ، إذا نمتَ تحرُسكَ ، وإذا استيقظتَ فهي تُحدّثُكَ»[1] .

وتأويل ذلك يكون على النّحو التالي : إذا ذهبتَ تهديكَ (أي في هذه الحياة الدُّنيا) ؛ إذا نمتَ تحرسُكَ (أي في القبر)[2] ؛ وإذا استيقظتَ فهي تُحدّثكَ (أي في الحياة الآخرة) .

يُحكى أن مُسافراً اجتاز في رحلته بغابة في ليلة مُظلمة مُوحشة ، فكان يسير بوَجَل شديد ، إذ أنه كان يخشى من قطّاع الطُّرُق الذين كانو يجوسون الدّرب الذي يجتازه ، كما كان يخشى من أن تزلّ به قدمه فيسقط في حُفرة أو شفير لا يظهران للعيان في طريقه ، وكذلك كان يخشى من الوحوش المفترسة التي كان يعرف بأنها تحوم حوله . وبطريق المُصادفة ، عثر الرّجل على مشعل من خشب الصّنوبر ، فأشعله ، فوفّر له ضياؤه ارتياحاً كبيراً . وهكذا لم يعد يخشى مخاطر الوقوع في أشواك العَوْسَج أو تزلّ به قدمه في هاوية ما ، لمّا صار بوسعه أن يرى أمامه . غير أن فزعه من قطّاع الطُّرُق ومن الوحوش بقي يؤرّقه ولم يُبارحه إلى أن انبلج الفجر وطلعت الشّمس . ومع ذلك فقد بقي غير واثق من اتجاهه إلى أن خرج من الغابة وبلغ مُفترق الطُّرُق ، فعاوده إذّاك الاطمئنان .

---

(1) سفر الأمثال – 6 : 22 .

(2) في فقه الشّريعة اليهوديّة ما يُعرف بعذاب القبر (في العبرية : חבוט הקבר حِبُوط هَقَّبير) كما هو الحال في العقيدة الإسلامية . وهنا نجد الكثير من تداخلات أحاديث عذاب القبر وأشراط قيام السّاعة ، في التّراث الشّفهي المُقحم على الحديث الشّريف . ومصدر هذه المرويات كلّها (المتعارف عليها بالإسرائيليّات) هو حتماً من أجَداه المدراشيم والتّلمود ، وجُلّ ما دخل منها التّراث الإسلامي كان عن طريق 3 شخصيات يهوديّة دخلت الإسلام بُعيد عهد الرّسول ﷺ لتبثّ فيه ما ليس منه : كَعْب الأحبار (كعب بن ماتع الحِمْيَري من يهود اليمن) ، ووَهَب بن مُنَبّه ، وعبد الله بن سلام .

فأما الظُّلمة التي كان الرّجل يسير فيها ، فهي كناية عن نقص المعرفة الدّينية . وأمّا المشعل الذي عثر عليه فهو يمثّل وصايا الله ، التي أرشدته إلى سواء السّبيل حتى بلغ نعمة ضياء الشّمس ، التي تمثّل بدورها كلمة الله المقدّسة ، أي كتابه . وبرغم ذلك ، طالما كان الرّجل ما يزال في الغابة (أي الحياة الدّنيا) ، لم يكن ينعم تماماً براحة البال ، فبقي قلبه معتلاً ضعيفاً ، وكان عُرضةً للضّلال عن الطريق القويم . لكنه عندما يبلغ مُفترق الطُّرُق (أي الموت) ، يكون بوسعنا أن نعدّه رجلاً صالحاً بالحقّ ، وننبري قائلين[1] :

«الصّيتُ خيرٌ من الدُّهن الطيِّب ، ويوم الممات خيرٌ من يوم الولادة»[2] .

* * *

قام الرّابي يُوحَنان بن بِرُوقا والرّابي إليعيزَر بن حِسْمَا بزيارة معلّمهما ، الرّابي يُوساه ، فقال لهما :

«ما هي أخبار المدرسة ؟ وماذا يجري فيها ؟» .

فأجابا : «لا كلام لنا ونحن تلميذاك ، فأنتَ مَن يتكلّم وما علينا نحن إلا الإصغاء» .

أجاب الرّابي يُوساه : «بغضّ النّظر عن ذلك ، لا يمضي يوم بغير حصول أمر ذي شأن في المدرسة . فمَن كان يُحاضر فيكم اليوم ؟» .

أجابا : «الرّابي إليعيزَر بن عازُورْياه» .

«فما كان موضوع بحثه ؟» .

---

(1) هنا مثال حيّ على أسلوب الجدليّة الماورائيّة الغيبيّة التي ينتهجها أكثر شُرّاح التّراث القديم في تقديم الخطاب الدّيني ، بمحاولة الرّبط التّلقائي بين واقع الحياة ومتون الدّين ، مُعتبرين أن ما يفسّرونه إنما هو الخلاصة الوافية في توافق علوم العقل والنّقل . ولا ريب أننا اليوم في مطلع القرن الحادي والعشرين بتنا بحاجة مُلحّة إلى خطاب ديني عصري مُستنير أكثر انسجاماً مع ثورة المعلومات ، ليطرح حلولاً جادّة لمشاكل الإنسان والمجتمع ، لا أن يكون مجرّد قناع لتمرير مصالح «الدّيوك الرّومية» وأحلافهم من أهل الحكم والبزنس .

(2) سفر قُهِلت (الجامعة) - 7 : 1 .

أجاب أحدهما : «قد اختار هذه الآية من سفر التّثنية[1] : «تجمع الشّعب جميعاً ، الرّجال والنّساء والأطفال» ، وشَرَحَها على النّحو التالي :

« «الرّجال يأتون للتّعلّم ، والنّساء للاستماع ، فلماذا الأطفال ؟ لكي ينال مَن يحضرهم ثواباً على تعويد أبنائهم على مخافة الرّبّ» .

«وشَرَحَ آيةً من سفر قُهِلت (الجامعة) : «كلام الحُكماء كالمَناسيس وكأوتاد مُنغرزة [هي كلمات] أرباب الجماعات ، قد أُعطيَتْ من راعٍ واحد»[2] .

«فقال : «لماذا يُشبَّه كلام الحُكماء بالمَناسيس (المهاميز) ؟» . هذا لأن المنخس يُجبر الثّور على شقّ الثُّلم مستقيماً ، والثُّلم القويم يطرح غذاءً وافراً لحياة الإنسان . فهكذا هي شريعة الله تُبقي قلب الإنسان قويماً ، لكي يُنتج عملاً صالحاً يبقى لحياته الأبديّة . ولكن لئلا تقول : «فإن كان المنخس قابلاً للتّحريك ، للزم أن يكون ذلك شأن الشّريعة» ، يرد أيضاً في متن الكتاب : «كأوتاد» ، وكذلك «كأوتاد مُنغرزة» ، لئلا يخطر لك مسألة أن الأوتاد المدقوقة في الخشب تتلاشى عن النّظر في كل ضربة تدقّها ، وأنه بالتالي من خلال هذا التّشبيه يمكن اعتبار شريعة الله عُرضة للتّلاشي أيضاً . كلا ، بل هي كوَتَد مُثبّت أو مغروس ، كما هي الشّجرة المغروسة لتطرح ثماراً وتُنتج وَفْرةً» .

«وأما «أرباب الجماعات» فهم مَن يتجمّعون معاً لدراسة الشّريعة . ومراراً ما تنشب الجدالات الخلافيّة بينهم ، فربما تقول في نفسك : «بين حشد هذه الآراء المختلفة كيف لي أن أركن إلى دراسة للشّريعة ؟» ، فالجواب مكتوب في متن الأسفار المقدّسة : «قد أُعطيَتْ من راعٍ واحد» . فمن إله واحد أُوحيت الشرائع كلّها . لذا فعليك أن تجعل أذنيك كَالمِنخُل ، وأن توطئ قلبك لتحصيل هذه الكلمات بأجمعها» » .

فقال الرّابي يُواش : «طُوبى لجيلٍ تعلّم على يديّ الرّابي إليعيزَر» .

* * *

(1) لم يتبيّن لنا نصّها في سفر التثنية ، فترجمناها كما جاءت في النّص أمامنا .
(2) سفر الجامعة – 12 : 11 .

عبّر حاخامو المَجمَع الدّيني في يَبْنه[1] יבנה عن احترامهم للبشر بأسرهم ، سواءٌ أكانوا من علماء الشّريعة أو من الجُهّال ، على هذا النّحو :

«أنا مخلوق من عباد الله وكذلك هو جاري ، قد يميل هو إلى الفلاحة في الحقل ، وأفضّل أنا حرفة في المدينة . أقوم في الصّباح الباكر لمصالحي الشّخصية ، ويقوم هو باكراً لتدبير مصالحه الخاصّة . وطالما كان غير راغب بانتهاك حقوقي ، فعليّ أن أحرص على عدم القيام بما من شأنه الإضرار بمصالحه . هل يمكنني أن أتخيّل أنني أقرب إلى الله إن كانت مهنتي تدعو إلى تحفيز مسألة تعلّم الشّريعة ، فيما كانت مهنته ليست بذاك ؟ كلا ، فسيّان ما ننجزه من عمل صالح ، كبيراً كان ذلك أم صغيراً ، يجازينا الله بالثّواب بحسب ما لنا من صالح النيّات» .

ويقدّم أبائيه هذه النّصيحة الأثيرة لديه :

«. . . وليكن أيضاً ليّن الأخلاق ميّالاً إلى إحلال مشاعر الودّ والتّراحم بين النّاس ، فإن فعل ذلك يكسب لنفسه محبّة كلٍّ من الخالق والخليقة» .

وكان الرّابي رابّا دوماً يقول إن حيازة الحكمة ومعرفة الشّريعة تؤدّيان بالضّرورة إلى التّوبة والمبادرة إلى صالح الأعمال . ويقول : «لأنه لا جدوى من تحصيل معرفة عظيمة والتبحّر في شّرائع التّوراه والتّلمود ، ثم التّصرّف بغير احترام تجاه الأبوين ، أو تجاه مَن كانوا أكبر بالسّنّ أو بالمستوى العلمي» .

«رأسُ الحكمة مخافة الرّبّ ، والفَطِن هو مَن يمتثل لأوامر الله»[2] .

وقال رابّا : «الكتاب المقدّس لا يُنبئنا بأن دراسة أوامر الله هي ما يدلّ على حُسن الفهم ، بل إن تنفيذها هو الأصل . لكن علينا أن نتعلّم قبل أن نكون أهلاً للتّطبيق ، ومَن يفعل في حياته خلاف تعاليم الله العليّ خيرٌ له لو لم يولد» .

* * *

(1) يَبْنه (يَفْنه بالإشكنازيّة) أو يُبنى جنوبي يافا واللُّد ، اشتهرت بمجمعها الدّيني اليهودي بعد خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها يُوحَنان بن زكّاي مركزاً للسّنهدرين ، كما أقام جَمْليئيل يشيڤا כרם ביבנה . دعاها الرّومان يامنيا Jamnia ، والصّليبيون إيبلان Ibelin .

(2) مزامير داوِد – 111 : 10 .

«الرّجل الحكيم يبدو في أدنى فعاله عظيماً ، والأحمق يظهر في أعظم فعاله وضيعاً» .

سأل تلميذ يوماً معلّمه : «ما هي عين الحكمة ؟» ، فأجاب المعلّم : «هي أن تحكم على الأمور بعقل متحرّر ، وأن تفكّر بذهن صافٍ ، وأن تحبّ جارك» . وأجاب معلّم آخر : «نهاية الحكمة أن تعرف ذاتك» .

«إيّاك والغرور وغَلَبة التّيه النّاجمَين عن رُتبة التّعلّم ، وروِّض لسانك على نُطق عبارة : «لا أدري»[1]» .

إن كرّس امرؤٌ ما نفسه للدّراسة ، وأصبح عليماً بما تقرّبه أعين معلّميه وقلوبهم ، وبقي برغم ذلك متواضعاً عند تبادله الحديث مع النّاس الأقل ذكاءً ، وأميناً في معاملاته ، وصادقا في أعماله اليوميّة ، فإن النّاس يقولون في حقّه : «طُوبى للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وطُوبى للمعلّمين الذين ثقّفوه على دروب الحقّ ، فما أجمل طرقه ، وما أحقّ أعماله بالتّقدير ! ألا عن أمثاله ينصّ الكتاب المقدّس بالقول : «قال لي : أما أنت يا يسرئيل عبدي يا يعقوب الذي اخترتُه !»[2]» .

ولكن إن كرّس امرؤٌ ما نفسه للدّراسة ، وأضحي عليماً ، فازدرى مَن كانوا أدنى منه ثقافة وعلماً ، وكان غير أمين في تعاملاته مع أقرانه ، فالنّاس في حقّه يقولون : بؤساً للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وبؤساً لمَن ثقّفه ، فكم هو مستهجن سلوكه ، وكم هي طرقه كريهة ممجوجة ! ألا عن مثل هذا تنصّ التّوراه بالقول : «بادَت الأممُ من أرضه»[3]» .

* * *

(1) لهذه المقولات أشباه في أدبنا العربي بصدر الإسلام ، كما في مجاميع الجاحظ الأدبيّة : «مَن حاز «لا أدري» حاز نصف العلم» ، وأيضاً : «يظلّ الإنسان عالماً ما طَلَبَ العلم ، فإذا ظنّ أنه عَلِمَ فقد جَهِل» .

(2) سفر يشَعياه – 41 : 8 .

(3) سفر المزامير – 10 : 16 .

عندما تقف النّفوس قبالة كرسي الحُكم الذي لله ، يُسأل الفقراء والأغنياء والفُسّاق ، كلاً على حِدة ، عن عُذرهم في عدم دراستهم للشّريعة . فإن تعلّل الفقير بفقره يتمّ تذكيره بهِلّيل[1] ، فرغم أن تحصيل هِلّيل المالي كان ضئيلاً فهو كان يُنفق نصفه ليدفع رسم الدّخول إلى المدرسة .

وعندما يُسأل الغنيّ ، فيجيب بأن شؤون تجارته وثروته قد ألهتْهُ عن تحصيل العلم ، يُجاب بأن الرّابي إليعيزَر كان يملك ألف حُرْج وألف سفينة ، ومع ذلك تخلّى عن مُتع الثّروة كلّها ، وراح يرتحل من مدينة إلى أخرى بحثاً عن مسالك الشّريعة وتفاسيرها .

وعندما يتحجّج الفاسق بأن الشّهوات قد أغوته وحرفته صوب طريق الرّذيلة ، يُسأل إن كانت الغواية التي تعرّض لها أكثر ممّا تعرّض له يُوسيف ، أو إن كان امتُحن بشكل أشدّ وأبلغ ، في السّرّاء والضّرّاء .

ولكن برغم أننا مأمورون بدراسة شريعة الله ، علينا ألا نجعل منها عبئاً ثقيلاً ولا أن نُهمل في سبيل الدّراسة أي واجب أو ساعة ترفيه مشروع . سأل تلميذ في إحدى المرّات : «لماذا تُعدّ عبارة «والحنطة تجمعُها في وقتها»[2] واحدة من وصايا التّوراه ؟ أليس جمع النّاس لمحصولهم من الحنطة أوان نُضجها أمراً بديهياً ؟ وعلى ذلك تكون الوصيّة غير ذات جدوى» .

فأجاب الرّبّانيّون : «ليس الأمر بذاك ، فلربّما كانت هذه الحنطة تعود إلى رجل أهمل عمله من أجل الدّراسة . إن العمل مُقدّس ومُكرَّم في عيني الله ، فهو لا يشاء بأن يُحجم الرّجال عن أداء واجباتهم اليوميّة ، حتى وإن كان ذلك من أجل دراسة شريعته» .

* * *

(1) تقدّم ذكر هِلّيل هَنّاسي في هذا الفصل ، ص 239 ، فليُنظر .
(2) راجع ما يُشابه ذلك في سفر راعُوت ، الأصحاح الثاني .

فريضة الصّلاة

احمد الله على النَّعماء كما تحمده على الضَّرّاء . وعندما تسمع بوفاة أحد ما فقُل : «تبارَكَ الدَّيّان العادل» .

الدُّعاء والصّلاة هي السّلاح الوحيد لبني يسرَئيل ، وهو سلاح توارثوه عن آبائهم ، سلاح مُجرّب في آلاف المعارك . وحتى لمّا تكون أبواب الدُّعاء مُوصدة في السّماء ، فإن أبواب الدّموع تبقى مفتوحة .

فنقرأ (في سفر الخروج – 17 : 11) أنه في الحرب مع عماليق ، عندما كان مُوشيْه يرفع يده يغلب يسرَئيل . فهل كان ليد مُوشيْه تأثير على الحرب ، للبدء بها أو إيقافها ؟ لا ، وإنما حينما كان بنو يسرَئيل يشخصون بأبصارهم للأعلى بقلوب كسيرة إلى الآب الأكبر في السّماء ، لم يكن يتسنّى لأي مكروه أن ينال منهم .

«فصنع مُوشيْه حيَّة من نُحاس ووضعها على الرّاية ، فكان متى لدَغت حَيّة إنساناً ونظر إلى حيّة النُّحاس يحيا» (سفر العدد – 21 : 9) .

فهل كان لحيّة النُّحاس القُدرة على القتل أو على منح الحياة ؟ لا ، بل حينما كان بنو يسرَئيل يرفعون أبصارهم إلى الآب الأكبر في السّماء ، كان هو يمنحهم الحياة .

يسأل الأنبياء : «هل يستمتع الله بلحوم الأضاحي ودمائها ؟» .

لا ، فهو لم يقيّدهم بالأوامر بقدر ما كان يهبهم من النَّفَحات . إذ يقول : «لأنفسكم وليس لي ما تقدّمون» .

كان لبعض الملوك ابنٌ ، ألفاه يعمه يوميّاً في القصف والعربدة مع رفاق السّوء ، ولا يأكل ولا ويشرب إلاّ معهم . فقال الملك : «كُل على خُواني ، كُل واشرب يا بُنيّ كما يحلو لك ، ولكن ليكن ذلك على خُواني وليس مع رفاق السّوء» .

كان النّاس يحبّون تقديم القرابين ، وكانوا يقدّمون أضاحيهم لآلهة غريبة ، لذا قال الله لهم : «إذا ضحّيتُم ، فأحضروا قرابينكم هذه إليّ» .

ينصّ الكتاب المقدّس بأن العبد العبري الذي يحبّ عبوديّته تُخرز أذنه على ساكفة الباب[1]، فلماذا ؟

لأن هذه الأذن سمعت من جبل سيناء هذه الكلمات : «لأنهم عبيدي ، لا يُباعون بيع العبيد»[2]. عبيدي ، وليس عبيد عبيدي ، لذلك فاخرز أذن مَن يحبّ عبوديّته ويرفض الحرّية الممنوحة إليه .

إن مَن يقدّم قرباناً كاملاً يُجازى عليه بأعطية كاملة ، ومَن يقدّم قربان مَحرقة ينال جزاء قربان المحرقة ، غير أن مَن يُخضع نفسه ويتواضع لله وللبشر ينال ثواباً عظيماً كما لو أنه قدّم قرابين الدّنيا كلّها .

* * *

إن إله أبرَهام يكون في عون مَن يُحدّد مكاناً معيّناً للصّلاة للربّ .

قال الرّابي هينا : «عندما يموت مثل هذا الرّجل يقولون في حقّه : «قد مات رجل تقيّ ومتواضع ، كان يتّبع مثال أبينا أبرَهام» » .

فكيف لنا أن نعرف أن أبرَهام قد حدّد مكاناً معيّناً للصّلاة ؟

«وبكّر أبرَهام في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الربّ»[3] .

قال الرّابي حِلبُو : «علينا ألاّ نتعجّل عندما نكون على وشك مغادرة مكان للعبادة» .

وقال الرّابي أباييه : «هذا فيما يتعلّق بمغادرة مكان للعبادة ، لكن علينا قطعياً أن نُسارع عندما نتوجّه إلى مثل هذا المكان ، كما هو مكتوب : «لنعرف فلنتتبّع لنعرف الربّ»[4]» .

---

(1) انظر حول ذلك ما يرد في سفر التثنية – 15 : 16–17 : «ولكن إذا قال لك لا أخرج من عندك ، لأنه قد أحبّك وبيتك ، إذْ كان له خيرٌ عندك * فخُذ المخرز واجعله في أذنه وفي الباب ، يكون لك عبداً مؤبّداً ، وهكذا تفعل لأمَتِك أيضاً» .

(2) سفر اللّيويين – 25 : 42 .

(3) سفر التكوين – 19 : 27 .

(4) سفر هُوشِيَع – 6 : 3 .

وقال الرّابي زَبيد : «عندما كنتُ أبصر الرّبّانيين يخفّون إلى المحاضرة وهم يرغبون بالحصول على مقاعد مناسبة ، كنتُ أفكّر في نفسي : «إنهم لينتهكون بذلك حُرمة يوم شَبّات» ، غير أنني عندما سمعتُ الرّابي طَرفون يقول : «على المرء أن يُسارع دوماً إلى تطبيق وصايا الله» حتى في يوم شَبّات ، كما هو مكتوب : «وراء الرّبّ يمشون ، كأسدٍ يُزمجر»[1] ، سارعتُ أنا أيضاً لأبكّر في الحضور إلى المدرسة» .

وهذا المكان الذي تكون فيها صلاتنا إلى الله أبلغ وأدنى إلى قبوله هو بيته ، كما هو مكتوب :

«لتسمع الصّلاة التي يصلّيها عبدُك أمامَك في هذا الموضع»[2] ، إشارة إلى إقامة الصّلاة في بيت الله .

وقال رابين بن عاداه : «ما مصدر السَّنَد على العُرف الشّفاهي بأنه متى اجتمع عشرة رجال للصّلاة في بيت الله ، تنزّلت عليهم الذّات الإلهيّة ؟

«في متن الكتاب المقدّس مكتوب : «الله قائمٌ في مَجْمَع الله»[3] . وحول مسألة شرط كون عدد «الجماعة»[4] (أو حَشد المُصلّين) ينبغي ألاّ يقلّ عن عشرة رجال ، فنتبيّنها من خلال كلام الله إلى مُوشيْه بخصوص الجواسيس الذين تمّ إرسالهم لاستطلاع أرض كنعان[5] . فلقد قال : «حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشّرّيرة ؟»[6] . هذا ولقد كان عدد الجواسيس يبلغ اثني عشر رجلاً ، ولكن لمّا كان يهوشُوَع وكالب صادقين ومؤمنين ، فإن عدد «الجماعة الشرّيرة» اقتصر بالتالي على عشرة أنفار» .

---

(1) سفر هُوشيَع – 11 : 10 .

(2) سفر الملوك الأول – 8 : 29 ، من صلاة شلومو الاحتفالية بتدشين الهيكل .

(3) مزمور لآساف ، سفر المزامير – 82 : 1 .

(4) مصطلح الجماعة في العبرية : עדה (عِيْداه) ، والمفهوم موجود في فقه العبادات الإسلاميّة حول شرط قيام صلاة الجماعة وصلاة الجمعة . ورغم أنه قد لا تكون ثمّة علاقة مباشرة بين المفهومين ، فمن المهم عقد مقارنة بينهما ضمن إطار مصادر اليهوديّة والإسلام .

(5) انظر حول ذلك سفر العدد – الأصحاح 13 .

(6) سفر العدد – 14 : 27 .

ويتابع السّؤال : «وما هو مصدر السَّنَد على العُرف الشّفاهي القائل بأنه لمّا يقوم ولو رجل واحد بدراسة الشّريعة ، تتنزّل عليه الذّات الإلهيّة ؟» .

لأنه مكتوب[1] : «في كلّ الأماكن التي فيها أصنعُ لاسمي ذكراً ، آتي إليك وأباركُك» .

* * *

هناك أربع من شخصيات التُّوراه تَلَوا أدعيتهم بغير تَدَبُّر أو تفكير ، ومع ذلك أبرّ الله ثلاثة منهم ، بينما خاب الرّابع . وهم : إليعيزَر خادم أبرَهام ، وكاليب بن يِفُنّه ، وشاؤول بن قيش ، ويفتاح الجلعادي .

أما إليعيزر فقد دعا : «ليكن أن الفتاة التي أقول لها : «أميلي جَرّتك لأشرب» ، فتقول «اشرب وأنا أسقي جِمالك أيضاً» ، هي التي عيّنتها لعبدك يصحاق» (سفر التكوين – 24 : 14) .

فهَب أن عبدةً قامت بأداء المطلوب كما دعا إليعيزَر ، أكان أبرَهام ويصحاق يرضيان ؟ غير أن الله أبرّ بمُراده ، وجرى أن «رِبْقاه كانت خارجة» .

أما كاليب فقد دعا : «الذي يضرب قرية سيْفِر קריית ספר ويأخذها أعطيه عَكْساه עכסה ابنتي امرأةً» (سفر القُضاة – 1 : 12) .

فهل كان جاهزاً لإعطاء ابنته لعَبد أو لوثني ؟

غير أنّ الله أبرّه ، فكان أن «أخذها عاتنيئيل بن قناز עתניאל בן־קנז ، أخو كاليب כלב الأصغر منه ، فأعطاه عَكْسَاه ابنته امرأةً» .

وأما شاؤول فقال : «فيكون أن الرّجل الذي يقتله (أي جُليات) يُغنيه الملك غِنىً جزيلاً ويعطيه بنته» (سفر صموئيل الأول – 17 : 25) .

فنرى أنه خاض الرّهان ذاته الذي خاضه كاليب ، فأبرّه الله أيضاً ، وتمكّن داوِد بن يَشّاي من تحقيق ما دعا به .

---

(1) سفر الخروج – 20 : 24 .

وأما يفتاح فقد أفاض عمّا بصدره على هذا النّحو : «إن دفعتَ بني عَمُّون ليدي ، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسّلامة من عند بني عَمُّون ، يكون للرَّبّ وأُصعدُهُ مُحْرَقَةً» (سفر القضاة – 11 : 31) .

فلنفترض أن جحشاً أو كلباً أو قطاً كان أول خارج للقائه عند رجوعه ، هل كان يُقدّمه قربان محرقة ؟ إن الله لم يُبرّ هذه المُراهنة ، فيرد في الكتاب المقدّس : «ثم أتى يفتاح إلى هَمِصْفَاه המצפה إلى بيته ، وإذا بابنته خارجة للقائه»[1] .

قال الرّابي شمعون بن يُوحاي : «لقد تحقّقت مطالب ثلاثة أشخاص من قبل أن يتمّوا تلاوة دعائهم ، وهم : إليعيزَر ومُوشيْه وشلومو .

«ففيما يخصّ إليعيزَر نقرأ : «وإذ كان لم يفرغ بعدُ من الكلام ، إذا رِبقاه خارجةٌ»[2] .

«وفيما يخصّ مُوشيْه نجد : «فلمّا فرغ من التّكلّم بكلّ هذا الكلام انشقّت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم»[3] (أي قُورَح وربعه) .

«وفيما يخصّ شلومو نجد : «ولمّا انتهى شلومو من الصّلاة ، نزلت نارٌ من السّماء وأكلت المُحرقة والذّبائح» (أخبار الأيام 2 – 7 : 1) .

تقديس يُوم شَبّات

قال الرّابي يُوحَنان ، نقلاً عن الرّابي يُوسيه : «المبتهجون بقدوم يُوم شَبّات (السّبت المقدّس) يُورثهم الله من فضله بغير حساب . كما هو مكتوب : «فتفرح بالرَّبّ» ، و «أجعلُك تفرح بميراث يعقوب أبيك» . لا كما كان وعد أبرَهام : «قُم فامشِ في الأرض طُولها وعرضها» . ولا كوعد يصحاق : « أعطيك كل ما في هذه الأرض» ، بل كما كان وعد يعقوب : «وتمتدُّ غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً» » .

---

(1) سفر القضاة – 11 : 34 .
(2) سفر التكوين – 24 : 15 .
(3) سفر العدد – 16 : 31 .

قال الرّابي يهُوداه إنه لو كان اليسرَئيليّون قد راعوا تماماً حُرمة يوم شَبّات الأول ، بعدما صدر الأمر الإلهي بتقديس اليوم السّابع ، لكانوا نجوا من ربقة العبوديّة ، كماهو مكتوب : «وحدث في اليوم السّابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا (المَنّا) ، فلم يجدوا»[1] . وفي الأصحاح التالي نقرأ : «وأتى عَماليق وحارب يسرَئيل في رَفيديم»[2] .

والقصّة التالية هي واحدة من قصص كثيرة وُضعت لتبيّن أن الحفاظ على حُرمة يُوم شَبّات يعود على صاحبه بالثّواب :

يُحكى أن يهودياً ، اسمه يوسيف ، كان يحافظ على حُرمة يُوم شَبّات ، وكان له جار بالغ الثّراء ، له اعتقاد كبير بالتّنجيم . وكان ثمّة منجّم عرّاف محترف قال له إن ثروته ستؤول بأجمعها إلى يوسيف . ولذلك ، قام الرّجل ببيع أطيانه وأملاكه ، واشترى بثمنها جوهرة عظيمة ، قام بإخاطتها في عمامته قائلاً : «سوف لن يتسنّى ليوسيف على الإطلاق الحصول عليها» . لكن الذي جرى أنه عندما كان الرّجل في بعض الأيام واقفاً على متن سفينة تقلّه في البحر ، هبّت ريح قوية وأطاحت بالعمامة من على رأسه . والتقفت الجوهرة سمكة ، فلمّا اصطيدت وعُرضت للبيع في السّوق ، صادف أن يوسيف اشتراها لتكون طعام مائدته عشيّة يُوم شَبّات . وبالطبع لمّا شقّ جوفها ألفى الجوهرة بداخلها[3] .

سُئل الرّابي يشْمَعيل بن يهُوشُوَع : «كيف أضحى أغنياء أرض يسرَئيل بهذا الغنى الفاحش ؟» ، فأجاب : «كانوا يؤدّون ضريبة العُشر الواجبة في وقتها ، كما هو مكتوب : «تُؤدّي الأعشار لكي تصير غنياً» . فابتدر السّائل قائلاً : «ولكن الأعشار كانت تُدفع للّيويين ، فقط أيام قيام الهيكل . فما الفضيلة التي حازوها أثناء إقامتهم في بابل ، حتى أضحوا هناك أغنياء أيضاً ؟» .

---

(1) سفر الخروج – 16 : 27 .

(2) سفر الخروج – 17 : 8 .

(3) قصّة رمزيّة تتكرّر مراراً في آداب الشعوب ، وفيها مثال مهمّ على وجوب دراسة الفارق بين التّراث الأدبي الرّمزي والتّراث الدّيني النّاتج عن وحي . وسنرى في الفصل القادم نماذج أخرى مهمّة تُلقي أضواءً جليّة على هذا المفهوم .

فأجاب الرّابي : «ذلك أنهم رفعوا مكانة الشّريعة المقدّسة عن طريق العمل في تفسيرها» . «ولكن في البلاد الأخرى ، حيث لم يعملوا في تفسير الشّريعة ، كيف استحقّوا ما أتاهم من ثروة ؟» ، فكان الجواب : «استحقّوه بما كانوا يبدون من تقديس ليوم شَبّات» .

قال الرّابي آحيّا بن أبّا : «مكثتُ في لوديك مرّة من المرّات ، فاستضافني رجل غني في يوم شَبّات . كانت مائدته حافلة بأنواع الأطعمة الباذخة ، وكانت الصّحاف مصنوعة من الفضّة والذّهب . وقبل القيام بتلاوة مباركة للطعام ، قال صاحب البيت : «لله مُلك الأرض وما عليها» . وبعد تلاوة المُباركة قال : «السّموات سمواتٌ للرّب ، أما الأرض فأعطاها لبني آدام»[1] . قلت لمُضيفي : «يخال لي أنك تعذرني يا سيّدي العزيز ، إن أنا سمحتُ لنفسي أن أسألك عن موجب استحقاقك لهذه النّعماء ؟» ، فقال : «قد كنتُ فيما مضى جزّاراً ، وكنتُ دوماً أحرص على انتقاء خيار الماشية لأذبحها لأجل شَبّات ، لكي يحصل النّاس من اللّحم على أحسنه في ذلك اليوم . ومن جرّاء ذلك ، كما أعتقد جازماً ، نلت هذه النّعم» . فأجبتُ : «فتباركَ الرّبّ الذي أعطاك هذا كلّه» » .

في إحدى المرّات سأل تُرنوسروپيس الحاكم الرّابي عَقيبا : «ما هو هذا اليوم الذي تدعوه شَبّات وتتغالى في ذكره مزاياه ؟» ، أجاب الرّابي : «وما هي مزاياك أنت على باقي النّاس ؟» ، أجاب : «أنا أسود على الجميع ، إذ أن الإمبراطور قد عيّنني حاكماً عليهم» .

فقال عَقيبا : «فإن الرّبّ إلهنا ، الذي هو أعظم من إمبراطورك ، قد عيّن يوم شَبّات يوماً أقدس من باقي الأيام» .

وما أجمل ما يؤثر حول عشيّة يُوم شَبّات :

عندما يبرح المرء الكنيس قافلاً إلى داره يرافقه ملاك للخير وملاك للشّرّ . فإن ألفى الخُوان مُزجىً في داره ، ومصابيح شَبّات تشعّ بالأنوار ، وامرأته وأولاده يرتدون ثياب العيد لمباركة يوم الرّاحة المقدّس ، يقول ملاك الخير :

---

(1) سفر المزامير - 115 : 16 .

«ليكُن شَبّات القادم وكل شَبّات لكم يأتي على هذه الشّاكلة . سَلامٌ لهذا المسكن ، سَلام» ، وينبغي لملاك الشّرّ أن يُجيب : «آمين !» .

ولكن إن كان الدّار غير مجهّز ، ولم تكن التّرتيبات أُعدّت لاستقبال يُوم شَبّات ، وما من قلب في الدّار أنشد : «تعالوا يا أحبّتي نستقبل العَروس ، ونحتفي بقدوم شَبّات» ، فعندها يتكلّم ملاك الشّرّ ويقول :

«ليكُن كلّ شَبّات لكم يأتي على هذه الشّاكلة» ، فيجيب ملاك الخير باكياً مُنتحباً : «آمين !» .

الثّواب والعقاب

أذنب شمشون تجاه الرّبّ بعينيه ، كما هو مكتوب : «قد رأيتُ امرأةً من بنات الفلسطينيين . . . إيّاها خُذ لي ، لأنها حَسُنت في عينيّ» (سفر القضاة – 14 : 3) . ولذلك فإنه بعينيه قد عُوقب ، كما هو مكتوب : «فأخذه الفِلسطينيّون وقلعوا عينيه»[1] .

وأبْشالُوم بن داود كان يفتخر بشَعره ، «ولم يكن في كل يسرَئيل رجلٌ جميل كأبشالوم ، ولهذا كان مَمدوحاً جداً ، فمن باطن قدمه حتى هامته لم يكن فيه عيب . وعند حلقه رأسه – إذ كان يحلقه في آخر كل سنة ، لأنه كان يثقُل عليه – كان يزن شعر رأسه مئتي شيْقِل بوزن الملك»[2] . ولذلك ، فبشعره شُنق[3] .

أمّا مِريَم فقد انتظرت مُوشيْه ساعةً (لمّا كان في صندوق البَردي) . ولذلك ، فإن اليسرَئيليين انتظروا مِريَم سبعة أيّام ، عندما أصابها البَرَص . «ولم يرتحل الشّعب حتى أُرجعت مِريَم» (سفر العدد – 12 : 15) .

---

(1) سفر القضاة – 16 : 21 .

(2) سفر صموئيل الثاني – 14 : 25–26 .

(3) سفر صموئيل الثاني – 18 : 9 ، وذلك بأنه كان بوَعْر أفرايم «راكباً على بغل ، فدخل البغل تحت أغصان البُطمة العظيمة المُلتفّة ، فتعلّق رأسه بالبُطمة وعُلّق بين السّماء والأرض ، والبغل الذي تحته مرّ» .

ويوسيف دَفَنَ أباه ، «فصعد يوسيف ليدفن أباه»[1] . لم يكُ ثمّة أعظم من يوسيف بين بني يسرَئيل ، غير أن مُوشيْه فاقه شأناً فيما بعد ، لذلك نجد : «وأخذ مُوشيْه عظام يوسيف معه»[2] . غير أن هذه الدّنيا لم تشهد أعظم من مُوشيْه ، لذلك فهو مكتوب : «ودَفَنَه (الله) في الجواء في أرض مُؤاب»[3] .

* * *

عندما أضحت المشقّة والحسرة نصيب بني يسرَئيل ، وتمّ إقصاء الضُّعفاء عن شعبهم ، كان ملاكان يربتان بأيديهما على رأس مَن ينسحب ، قائلين : «لا يشهد هذا خلاص الشّعب» .

فعندما تحلّ المشقّة بالرَّعيّة لا يحسُن بالمرء أن يقول : «أنا ذاهبٌ إلى بيتي ، فآكل وأشرب ، وأموري تكون بخير» ، فعن مثل هذا يتحدّث الكتاب المقدّس : «فهو ذا بهجةٌ وفَرَح ، ذبحُ بقر ونَحر غَنَم ، أكل لحم وشُرب خمر . لنأكل ونشرب ، لأننا غداً نموت . فأعلَنَ في أذنيّ ربّ الجنود : «لا يُغفَرَنَّ لكم هذا الإثمُ حتى تموتوا» »(سفر يشَعْياه – 22 : 13–14) .

أمّا مُعلّمُنا مُوشيْه ، فقد حمل نصيبه على الدّوام من مشقّة الشّعب ، كما هو مكتوب : «أخذا حجراً ووضعاه تحته» (سفر الخروج – 17 : 12) . أفلم يكن ممكناً لهما أن يقدّما له مقعداً أو وسادة ؟ لكنه بعدها قال : «ما دام اليسرَئيليّون في شدّة (خلال الحرب مع عماليق) فها أنا ذا أتحمّل ما يقع على عاتقي إلى جانبهم ، لأن مَن يتحمّل ما يقع عليه في زمن البلاء يعيش ليبتهج بساعة السُّلوان . وويلٌ لمن يقول في نفسه : «لعلّي أتركُ واجبي ، فمَن تُراه يدري بي إن أنا تحمّلتُ واجبي أم لم أتحمّل ؟» ، فحتى حجارة بيته وأغصان الأشجار تراها تكون شاهدةً عليه ، كما هو مكتوبٌ في الأسفار : «لأن الحَجَر يصرخ من الحائط ، فيشهد له الجائزُ من الخَشَب»[4] » .

---

(1) سفر التكوين – 50 : 7 .
(2) سفر الخروج – 13 : 19 .
(3) سفر تثنية الاشتراع – 34 : 6 .
(4) سفر حَبَقّوق – 2 : 11 . لكن كيف يقول مُوشيْه بما لم يكن مكتوباً بعد في عصره ؟!

السّعي في الرّزق

قال الرّابي مئير : «عندما يعلّم امرؤٌ ابنه حرفةً ، ينبغي له أن يدعو مالك الكون ومُعطي الغنى والفقر ، لأنه في كل حرفة وباب رزق ثمّة أغنياء وفقراء لا محالة . فمن الغباء أن يقول شخص ما : «هذه حرفة رديئة ، سوف لن توفّر لي معاشي» ، لأنه سوف يجد الكثيرين قد أجادوا وأفلحوا في المهنة ذاتها . وكذلك لا ينبغي لرجل مُنعَم في عمله أن يتباهى ويقول : «هذه حرفة ممتازة ، خير الصّنائع ، لقد جعلتني موسراً» ، لأن الكثيرين ممّن يعملون في الحرفة ذاتها سواه لم يلاقوا إلا الفقر . بل ليذكر الجميع أن كل شيء في الحياة إنما يتأتّى من خلال رحمة الله وحكمته الواسعتين» .

وقال الرّابي شمعون بن إليعيزَر : «تراني ألاحظ طيور السّماء ودواب الأرض كيف يأتيها رزقها ، وهي مع ذلك مخلوقة لخدمتي ، فأقول : «ألا يحقّ لي أن أحظى بحياة مثلها أو أقلّ منها مشقّة ، حيث أنني خُلقت لخدمة إخواني من النّاس ؟ ولكنني للأسف قد أخطأتُ في حقّ خالقي ، ولذلك عوقبتُ بالفقر والحاجة إلى العمل !» » .

وقال الرّابي يهُوداه : «غالبية المكاريين (البغّالين) قُساة القلوب ، فهم يضربون دوابهم المسكينة بغير رحمة . ومُعظم الجمّالين مُستقيمون ، إذ أنهم يجوبون البوادي والمفاوز الموحشة ، ويجدون متّسعاً من الوقت للتّأمّل والتفكّر في الله . ومُعظم البحّارة متمسّكون بأهداب الدّين ، فحياتهم اليوميّة المحفوفة بالأخطار تدفعهم إلى ذلك . وخير الأطبّاء قَمينون بالعقاب ، إذ أنهم في أثناء تحصيل علومهم يتعاطون التّجارب على مرضاهم ، فتكون عاقبة ذلك مراراً الموت . أما خير الجزّارين فيستحقّون أن يُصنّفوا مع العماليقيين ، فهم معتادون على الدّم والقسوة ، كما هو مكتوب في حقّ العماليقيين : «اذكُر ما فعله بكَ عَماليق في الطريق عند خروجك من مصر . كيف لاقاكَ في الطريق وقطع من مؤخّرتكَ كلَّ المُستضعَفين ، وأنتَ كليلٌ ومُتعَب»[1] .

---

(1) سفر تثنية الاشتراع – 25 : 17–18 .

حول الموت

يولد الإنسان ويداه مُطبقتان ، ويموت ويداه مبسوطتان . فهو عندما يدخل مُعترك الحياة يودّ لو يقبض كل شيء ، أما عندما يبارح الحياة فإذا بكل شيء ينسلّ غيلةً من يديه .

مَثَل الإنسان كمَثَل الثّعلب ، فقد أبصر ثعلبٌ كَرماً فتملّكته الشّهوة إلى الأكل من أعنابه . بيد أن السّياج كان ضيّق الثّغرات ، وكان جسم الثّعلب أضخم من أن يتمكّن من النّفاذ عبرها . فكان أن صام ثلاثة أيام ، ولمّا نحل جسمه واستدقّ ولج الكرم ، وراح يولم بكامل شهيّته على عناقيد العنب ، ناسياً أمر الغد وما سيأتي به ، ولم يكترث إلا للانغماس فيما هو فيه من متّع . فإذا به يغدو مكتنزاً من جديد ، ويعجز عن الخروج من ساحة وليمته . ولذا ، لم يجد بُدّاً من الصّوم ثلاثة أيام أخرى ، فلمّا أمسى نحيلاً من جديد عَبَرَ من خلال السّياج ونفذ إلى خارج الكَرم ، نحيلاً كما دخله .

فهكذا شأن الإنسان ، يلج الحياة ضعيفاً وعرياناً ، ثم يغادرها ضعيفاً وعرياناً بالمثل .

وكم هي معبّرة هذه الحكاية التالية ، ممّا يُؤثَر عن الإسكندر[1] :

يُروى أنه حام حول أبواب الجنّة ، وطرق الباب للدّخول .

«مَن الطارق ؟» . . سألت الملائكة السَّدَنة .

«أنا الإسكندر» .

«ومَن هو الإسكندر ؟» .

«أنا الإسكندر بذاته ، الإسكندر الأكبر ، فاتح الدُّنيا» .

أجابت الملائكة : «لسنا نعرف هذا الاسم ، فهذا باب الله ، لا يدخله إلا الصّالحون» .

---

(1) أي الإسكندر الأكبر المَقدوني Alexander (356–323 ق . م) الفاتح الشهير وأحد عباقرة الحرب على مرّ العصور .

فراح الإسكندر يرجو إعطاءه شيئاً ليبرهن على أنه قد بلغ أبواب الجنّة ، فطُرحت له شظيّة من عظم جُمجمة . فأراها لحُكمائه ، فوضعوها في إحدى كفّتي ميزان . كال الإسكندر ذهباً وفضّة في الكفّة الأخرى ، غير أن شظيّة العَظم بقيت أثقل ، فكال المزيد بما فيه تاجه وقُلاداته المرصّعة بالجواهر وإكليله الملكي ، غير أن كسرة العظم الصّغيرة ظلّت تفوقها جميعاً بالوزن . عندها ، أخذ أحد الحُكماء ذَرّة من تُراب من الأرض وجعلها على قطعة العظم ، فإذا بالميزان يثبُ إلى أعلى .

لقد كانت شظيّة العَظم تلك من العظام المُحيطة بعين الإنسان ، وأما عين الإنسان هذه فليس ثمّة شيء يُرضيها أو يملأها إلا التُّراب الذي يطمرها في القبر .

عندما يموت الصّالحون فالأرض هي التي تتحسّر . فالدُّرّة تبقى دوماً دُرّة ، بخلاف أنها انتقلت من مُلك صاحبها السّابق . ولذا فليبكِ الخاسرون .

ما الحياة الدُّنيا إلا كطيف زائل ، كما يقول وحي الكتاب المقدّس . كظلّ بُرج أو شجرة ، أهو ظلٌّ يبقى وقتاً ؟ لا ، بل هو كظلّ طير يطير ، يمضي من ناظرينا فلا طيرُ يبقى ولا ظلّ .

موعظة جنائزية لموت حاخام

«حبيبي نزل إلى جنّته إلى خمائل الطّيب ، ليرعى في الجَنّات ويجمع السَّوْسَن»
דודי ירד לגנו לערגות הבשם לרעות בגנים וללקט שושנים:
(نشيد الأناشيد – 6 : 2) .

فما الدّنيا إلا جنّة حبيبي ، وحبيبي هو ملك الملوك . وكخمائل الطّيب هو يسرَئيل ، حيث يفوح عبير الرّحمة الزّكي ، ويتضوّع أريج العلم مع النّسائم العليلة ، وتحفّ بخمائل الطّيب دِعةُ السّلام ورغده . حيث تُزهر النّباتات وتُورق ، فتوفّر أوراقها وغصونها الوارفة حِرزاً أميناً لمن أمضّ به لهيب الحرّ أو مُكابدة الحياة . وحيث حبيبي يطلب أجمل الرّياحين ويقطف الأزاهير ، التي هي طلاّب الشّريعة ، ممّن يجدون في عقائد دينهم غاية النّعيم .

عندما يشتدّ لهيب النّار بخشب الأرز ويستعر ، أفلا يجدُر بنبات الزُّوفا (أشنان داود) أن يخاف ويرتعد ؟ وعندما يسحب الزّبانية بالشِّصّ حيّة لُوْياتان[1] לויתן الرّهيبة من أعماقها السّحيقة ، فما يبقى من أمل لأسماك المناقع الضّحلة ؟ وعندما يُلقى بخيط صيد السّمك في السّيل الجارف ، فكيف تشعر بالأمان أمواه السّواقي الرّقراقة ؟

فلنرثي لحال أولئك الباقين على قيد الحياة ، ولا نرثينّ مَن اصطفاه الله من وجه الأرض . فلقد آل هو إلى السّكينة الأبديّة ، بينما نمكثُ نحن ها هنا خاضعين للأسى والحَسرات .

* * *

(1) وحش بحري يرمز إلى الشّرّ ، يذكر في سفر أيوب – 41 : 1 ؛ ومزامير داود – 74 : 14 ؛ والمزامير – 104 : 26 ؛ وسفر يشَعْياه – 27 : 1 .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

وقائع من سِيَر حياة الحاخاميم

الرّابي عَقيبا[1]
רבי עקיבא

من واجب الإنسان شُكر الله على ما يصيبه من ضَرَر ومكروه ، كما يشكره على ما يصيبه من خير ، كما هو مكتوب : «فتُحبّ الرّبّ إلهك من كلّ قلبك ، ومن كلّ نفسك ، ومن كلّ قوّتك»[2] .

«من كلّ قلبك» . أي من كل نزوع طبيعي لك ، سواء تجاه الخير أو الشّرّ .

«ومن كلّ نفسك» . حتى وإن لزم الأمر أن تعطيه روحك .

«ومن كلّ قوّتك» . كلّ ما تملكه لشخصك . وبغضّ النّظر عمّا يُقدَّر لك من الخير أو الشّرّ ، فعليك أن تكون شكوراً .

كان الرّابي عَقيبا في إحدى المرّات مرتحلاً عبر البلد ، وكان معه جحش وديك ومصباح . فلمّا حلّ الظلام كان قد بلغ قرية حاول فيها البحث عن مأوى ، لكنه لم يُصب في ذلك فَلاحاً .

---

(1) عَقيبا (بالعبرية أكيبا أو أكيفا) بن يُوسيف (50–135 م) مؤسّس اليهوديّة الحاخاميّة وشارح المشناه (القانون الشفهي) . عاضد ثورة شمعون بار كوخبا ضد الرّومان (132–135 م) ، وكان يعتقده المَسِيَّح المنتظر ، وإثر فشل ثورته قُبض على عَقيبا فعُذِّب حتى مات .

(2) هذه آية من أهم صَلاة في التّوراه : «اسمع يا يسرَئيل» (شماع يسْرَئيل שמע ישראל) ، سفر التّثنية – 6 : 4–9 ، ونصّها الكامل : «اسمع يا يسرَئيل ، الرّبّ إلهنا ربٌّ واحد . فتُحبُّ الرّبَّ إلهَك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ قوّتك . ولتكُن هذه الكلمات التي أنا أوصيكَ بها اليوم على قلبك ، وقُصّها على أولادك ، وتكلّم بها حين تجلس في بيتك ، وحين تمشي في الطريق ، وحين تنام ، وحين تقوم . واربطها علامةً على يدك ، ولتكُن عصائبَ بين عينيك . واكتُبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك» .

قال الرّابي : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» ، وحزم أمره على التوجّه إلى الغابة ، عازماً على المبيت فيها . أشعل مصباحه ، فأطفأته الرّيح ، فقال : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» . وما لبثت الوحوش الضّارية أن افترست الجحش والدّيك ، فلم يزد الرّجل على مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

في اليوم التالي سمع بأن فرقة من جنود الأعداء كانت قد اجتازت بالغابة في تلك الليلة . فلو أن الجحش كان نهق ، أو أن الدّيك صاح ، أو لو لمح الجنود ضوء مصباحه ، لكان لاقى حتفه دونما ريب ، ولذلك عاود مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

* * *

وجرى مرّة عندما كان الرّابي جَمْليئيل ، والرّابي إليعيزَر بن عازورْياه ، والرّابي يهُوداه ، والرّابي عَقيبا ، كانوا يسيرون معاً ، تناهت إلى أسماعهم أصوات صياح وضحك وصخب فرح صادرة عن حشد من النّاس على مَبعدة . فبكى أربعة من الحاخاميم ، ما خلا عَقيبا الذي ضحك بقوّة .

فقال الآخرون له : «عَقيبا ، ما الذي يضحكك ؟ هؤلاء الوثنيّون الذين يعبدون الأصنام يُقيمون في أمان وسلام ، وينعمون بالسّعد والحُبور ، بينما تمكث مدينتنا المقدّسة خراباً يَباباً ، فلتَبْكِ بدلاً من أن تضحك» .

أجاب الرّابي عَقيبا : «لهذا السّبب بعينه أضحك وأشعر بالسّعادة ، فإن كان الله يسمح لهؤلاء الذين يعصون أوامره بالحياة سُعداء على الأرض ، فكم تكون بالأحرى عظيمة السّعادة التي يدّخرها في الحياة الآخرة لمن يتّبعون أوامره وينتهون عن نواهيه !» .

في مناسبة أخرى ، كان هؤلاء الحاخامون يتّجهون صعوداً إلى يَرُوْشَلايم ، فلمّا بلغوا جبل صُوفيم ورأوا الإقفار الذي يخيّم على المكان مزّقوا ثيابهم . ولمّا بلغوا الموضع الذي كان يقوم فيه الهيكل ، رأوا ثعلباً ينفر من البقعة التي كان بها قُدْس الأقداس ، فراح أربعة منهم يبكون بمرارة ، إلا عَقيبا بَدا بالمثل جَذِلاً . فراح زملاؤه يوبّخونه مجدّداً على شعوره هذا الغير ملائم في نظرهم .

فقال : «تُنكرون فرحي ، فقولوا أنتم أولاً : ما الذي يُبكيكم ؟» .

«لأن الكتاب المقدّس يُخبرنا بأن أي غريب (من غير نسل أهَرُون) يقترب من قُدس الأقداس ، ينبغي أن يُقتل ، والآن فها هي الثّعالب تتّخذه وجاراً لها . أفلا نبكي لذلك ؟» .

أجاب عَقيبا : «فأنتم تبكون إذاً للسّبب ذاته الذي يُفرح قلبي . أوليس مكتوباً : «أُشهد لنفسي شاهدين أمينين ، أُوريّا الكاهن وزكريّا بن يَبْرِخْياهو»[1] ؟ فما هي علاقة أُوريّا بزكريّا ؟ لقد عاش أُوريّا عندما كان الهيكل الأول قائماً ، بينما عاش زكريّا في أيّام الثاني . أفلا تعلمون بأن نبوءة أُوريّا تُشبّه بنبوءة زكريّا ؟ فمن خلال نبوءة أُوريّا نجد : «لذلك بسببكم تُفلَح صهيون كحقل ، وتصير يروشَلايْم خِرَباً ، وجبل البيت شَوامخ وَعر»[2] ، وفي سفر زكريّا نجد : «سيجلس بعدُ الشّيوخ والشّيخات في أسواق يروشَلايْم»[3] . فقبل أن تتحقّق نبوءة أُوريّا ، قد كان يمكن لي أن أشكّ في حقيقة كلام زكريّا المُطَمْئِن ، ولكن بما أن الأولى قد تحقّقت بالفعل ، أراني واثقاً أن وعود زكريّا سوف تتحقّق أيضاً ، فلهذا السّبب أنا فَرِحٌ جذلان» .

أجاب الرّفاق : «إن كلامك هذا يعزّينا يا عَقيبا ، فأدام الله علينا عزاءه» .

ومرّة أخرى بعد ، لمّا كان الرّابي إليعزَر طريح الفراش وقد برّحت به أسقام المرض ، وجعل أصحابه وتلامذته يكون عنده ، إذا بالرّابي عَقيبا يظهر فَرِحاً ، ويسألهم علامَ يكون . فأجابوا : «لأن رابينا المحبوب مُلقىً بين الحياة والموت» . أجابهم : «لا تبكوا ، بل على العكس ابتهجوا . فإن كان نبيذه لم يُمسِ حاذقاً ، ولم تُنكَّس رايتُه ، لظننتُ أنه في الحياة الدّنيا قد نال ثواب صلاحه ؛ ولكنني إذ أرى الآن معلّمي وهو يعاني لما قد يكون اقترفه في حياته من آثام ، فإنني أبتهج وأزهو . فلقد علّمنا بأن أكثرنا صلاحاً وتُقىً لا بدّ أن يكون ارتكب ذنوباً ، ولذا فهو في الحياة الآخرة ينال سلاماً» .

---

(1) سفر يشَعْياه - 8 : 2 .
(2) سفر ميخا - 3 : 12 ، وقبل ذلك ترد النّبوءة في سفر يرمياه - 26 : 18 .
(3) سفر زكريّا - 8 : 4 .

obeikandl.com

وعندما كان الرّابي إليعيزَر مريضاً ، قام بعيادته أعيان الحاخاميم الأربعة ، وهم : الرّابي طَرفون ، والرّابي يهُوشُوَع ، والرّابي إليعيزَر بن عازُورْياه ، والرّابي عَقيبا .

فتكلّم الرّابي طَرفون وقال : «أنت لبني يسرَئيل خيرٌ من وَبل المطر على أديم الأرض ، لأن المطر يحيي الحياة في الدّنيا فحسب ، أما أنت يا معلّمي فلقد ساعدت على إنضاج ثمار هذه الحياة الدّنيا والآخرة» .

وقال الرّابي يهوشُوَع : «أنت لبني يسرَئيل خيرٌ من الشّمس ، فإن كانت الشّمس تنير هذه الدّنيا فحسب ، فأنت قد وهبتَ نورك لهذه الحياة الدّنيا وللآخرة» .

ثم تكلّم الرّابي إليعيزَر بن عازُورْياه ، فقال : «أنت لبني يسرَئيل خيرٌ من الأب والأم للإنسان . فهما يقدّمانه إلى هذه الدّنيا ، أما أنت يا معلّمي فتُرشده إلى سواء السّبيل نحو طريق الخلود» .

ثم تكلّم الرّابي عَقيبا ، فقال : «من الخير للإنسان أن يُبتلى ، إذ أن مُعاناته تكفّر عن سيئاته» .

قال معلّمه : «فهل في الكتاب المقدّس تأكيدٌ لذلك يا عَقيبا ؟» .

أجاب عَقيبا : «أجل ، «كان مِنَشّيه ابن اثنتي عشرة سنةً حين مَلَكَ ، ومَلَكَ خمساً وخمسين سنةً في يروشَلايم ، وعمل الشّرّ في عيني الرّبّ» (سفر الملوك الثاني – 21 : 1) . فكيف كان ذلك ؟ أيكون الملك حَزَقْياه علّم الشّريعة للعالَم بأسره ، ولم يعلّم ابنه ؟ حتماً لا ، لكن مِنَشّيه لم يلتفت إلى وصاياه وأهمل كلمة الله حتى ابتُلي جسده بالأمراض ، كما هو مكتوب (في سفر أخبار الأيام الثاني – 33 : 10) : «وكلّم الرّبّ مَنَشّيه وشعبه فلم يُصغوا ، فجلب الرّبّ عليهم رؤساء الجُند الذين لملك أشّور ، فأخذوا مِنَشّيه بخزامة وقيّدوه بسلاسل نُحاس وذهبوا به إلى بابل . ولمّا تضايق طلب وجه الرّبّ إلهه ، وتواضع جداً أمام إله آبائه ، وصلّى إليه . فاستجاب له وسمع تضرّعه ، وردّه إلى يروشَلايم إلى مملكته . فعلم مِنَشّيه أن الرّبّ هو الله» .

«فماذا كان من أمر ملك أشّور مع مِنَشّيه ؟ لقد وضعه في برميل من نُحاس وأضرم تحته ناراً ، فلمّا جعل مِنَشّيه يُعاني الآلام المُبرّحة في جسده ، راح عقله يُعاني أكثر فأكثر ، ففكّر : «أأصرخ إلى الله القدير ؟ واحسرتاه ، إن سخطه عليّ لشديد . وإن استصرختُ أوثاني فهذا كله هباء . واكَرْباه وحَسْرَتاه ، أيُّ أمل بقي لي ؟» .

«فصلّى لأكبر أوثانه ، وبقي ينتظر استجابة بلا طائل . فصرخ إلى الأرباب الأدنى شأناً ، وبقي ماكثاً بلا صَريخ ولا مُجيب . وأخيراً توجّه إلى الله الأزلي العظيم ، فقال :

«يا يهُواه الأزلي ! يا إله أبرَهام ويصحاق ويعقوب ومَن تَلاهُم ، يا مُبدع السّموات والأرض . يا مَن خلقتَ للبحار شُطآناً ، وضبطتَ بكلمتك جبروت المُحيط العظيم . يا مَن رحمتُه تعدل عظمته وسُلطانه ، ويا مَن آلى على نفسه قبول توبة الأوّابين إليك بقلب سليم . قد جئتُك بذنوب تعدل رمل الشَّطّ . قد أسأتُ أمامك ، وارتكبتُ كلّ مَقيت في حضرتك وعملتُ كلّ شرّ . فها أنا ذا آتي إليك مُسربلاً بقيودي ، وعلى ركبتي أتوسّل إليك ، طالباً بأسمائك العُظمى الرّحيمة ، أن ترحم بلائي وشكواي . مغفرتك وعفوك يا ربّ ! لا تُهلكني بهذه الشّدّة بما اقترفت يداي ، ولا تَذَر عذابي يدوم للأبد . ورغم أني لا أستحقّ رحمتك يا ربّ ، خلّصني بمنّك وكرمك . ومن الآن فصاعداً سأمجّد اسمك كلّ أيام حياتي ، إذ أن مخلوقاتك كلّها تهلّل بتمجيدك ، ولك كلّ العظمة والخير دائماً وأبداً ، سِلاه[1] !» .

«فسمع الله صلاته ، كما هو مكتوب : «فاستجاب له وسمع تضرّعه ، وردّه إلى يروشَلايم إلى مملكته» .

تابع عَقيبا قائلاً : «فمن خلال ذلك نتعلّم أن في البَلاء مغفرةً للخطايا» .

* * *

(1) سِلاه تعبير عبري : סלה يرد مراراً في مزامير داوِد ، معناه : تسبيح .

قال الرّابي إليعيزَر الكبير : «نحن مأمورون بما يلي : «فتُحبُّ الرَّبّ إلهك من كلّ نفسك وبكلّ ما هو مُحبّب إليك» .

«أفلا تتضمّن عبارة «من كلّ نفسك» مغزى «بكلّ ما هو مُحبّب إليك» ؟

«لربما يحبّ بعض النّاس نفسه أكثر ممّا يحبّ ماله ، فله يُقال : «من كلّ نفسك» ، بينما بخصوص مَن كان يحبّ ماله أكثر من نفسه فالأمر الإلهي ينصّ : «وبكلّ ما هو مُحبّب إليك» » .

غير أن الرّابي عَقيبا على الدّوام يشرح عبارة «من كلّ نفسك» على أنها تعني : «حتى وإن طُلبت منك حياتك» .

وماذا كان موقف الرّابي عَقيبا إبّان صدور ذاك المرسوم الذي حرّم على اليسرَئيليين دراسة الشّريعة ؟ لقد أسّس عدّة رعويات سرّية ، وراح يدرّسهم خفيةً .

فقال له پاپوس بن يُوداه : «ألستَ خائفاً يا عَقيبا ؟ قد تُكتشف أفعالك ، فتُعاقَب على مُخالفتك للمرسوم» .

أجاب عَقيبا : «اسمع ، سأروي لك قصّة . يُحكى أن ثعلباً كان يسير بجانب النّهر ، فأبصر بالسّمك يسبح ويسبح جيئةً وذهوباً ، دون توقّف ، فقل لنفسه : «علامَ أنتنّ في عجلة من أمركنّ ؟ ما الذي يخيفكنّ ؟» .

أجبن : «شباك الصّيّادين» .

«فقال الثّعلب : «تعالينَ إذاً ، وعشنَ معي علي اليابسة» .

«فضحكت الأسماك ، وقُلن : «ويقولون إنك أكثر الحيوانات حكمة ؟ الحقّ أنك أكثرها غفلةً . فإن كنا تحت الخطر حتى في موطننا الأصلي ، فكم بالأحرى نكون في خطر أدهى إن نحن تركناه ؟» .

«فشأننا هو كذلك بالضبط . إذ يُقال لنا عن الشّريعة إنها «حياتنا وطول أيّامنا» . فهذا عندما تكون أمورنا بخير وأمان ، فكم هي حاجتنا إليها أكبر بالأحرى في أوقات كهذه ؟» .

ويُقال إنه لم يمض كثير من الوقت بعدها ، حتى زُجَّ بالرّابي عَقيبا في السّجن بسبب تدريسه الشّريعة ، وإذا به في السّجن الذي حُبس فيه يجد پاپوس ، الذي كان مُداناً بجناية من نوع آخر .

فقال له الرّابي عَقيبا : «پاپوس ، ما الذي أتى بك إلى هنا ؟» .

فأجاب پاپوس : «مَرحى لك مَرحى ، بأنك تُسجن لتدريسك شريعة الرّبّ ، أما أنا فعاراً لي وشناراً ، إذ آتي هنا بسبب أمور الباطل» .

فلمّا سيقَ الرّابي عَقيبا إلى الإعدام ، كان وقت صلاة الصّبح قد دخل . فصاح بصوت جهوري ثابت : «اسمَع يا يسْرَئيل ، الرَّبُّ إلهُنا ربٌّ واحد» .

فراح الجلاّدون يمزّقون لحمه بالمناخس المُدبّبة ، غير أنه بقي يردّد : «الرّبّ واحد» אדני אחד (أدوناي إحاد) .

وتابع : «كنتُ دوماً أقول إن الآية «من كلّ نفسك» تعني : حتى وإن طُلبت منك حياتك ، وكنتُ أتساءل إن كان في وسعي حقاً أن أبرّ بكلامي هذا . فها أنا ذا اليوم أفعل ، وإن «الرّبّ واحد» » .

وبهذه الكلمات الأخيرة فاضت روحه إلى بارئها .

فنُعمى لك يا أيها الرّابي عَقيبا[1] ، بأن روحك خرجت طاهرة ، وأن سعادة الحياة الأبديّة تكون مُلكاً لك بتمامها .

الرّابي إليْشَاع بن أبوياه
רבי אלישע בן־אבויה

الرّابي إليْشَاع بن أبُوياه ، الذي كان علاّمةً لا يُجارى في فقه الشّريعة ، بات في أواخر حياته مُرتداً משמד . وكان الرّابي مئير واحداً من تلاميذه ، لم يُثنِه شيء عن محبّته الفائقة التي يكنّها لمعلّمه .

---

(1) نحن المسلمون ننظر إلى كل إنسان مؤمن مُوحِّد بأنه من عباد الله الصّالحين ، ولا نقول باقتصار الإيمان على شعب دون آخر ، بل ﴿إلا مَن أتى الله بقلبٍ سَليم﴾ .

وحدث في إحدى المناسبات عندما كان الرّابي مئير يُحاضر في المدرسة ، أن دخل بعض التّلاميذ وقالوا له : «ها هو معلّمُك إليْشاع يمتطي صهوة حصان في يوم شَبّات المقدّس» .

فخرج الرّابي مئير من المدرسة ، ولمّا أدرك إليْشاع مشى بجانب حصانه . فحيّاه هذا الأخير ، وسأل : «أيّة آية من الكتاب المقدّس كنت تفسّر ؟» .

أجاب الرّابي مئير : «من سفر أيوب ، الآية «وبارك الرّبّ آخرة أيّوب أكثر من أولاه»[1]» .

قال إليْشاع : «فكيف فسّرتَ هذه الآية ؟» .

«بأن الرّبّ زاد على كلّ ما كان من مال لأيّوب ضعفاً» .

أجاب إليشاع : «لكنّ معلّمك عَقيبا قال غير ذلك ، قال إن الرّبّ بارك أواخر أيام أيوب بضعفين من التّوبة والعمل الصّالح» .

فسأل الرّابي مئير : «فكيف تفسّر إذاً الآية «نهايةُ أمرٍ خيرٌ من بدايته»[2]؟ هَبْ أن رجلاً ابتاع بضاعةً ما في شبابه ومُني فيها بخسائر ، فهل من الممكن أن يستردّ ثروته في شيخوخته ؟ أو لنفترض أن شخصاً درس شريعة الله في شبابه ثم نسيها ، فهل من المُحتمل أن تعود إلى ذاكرته في أواخر أيامه ؟» .

أجاب إليْشَاع : «معلّمك عَقيبا لم يقل ذلك ، بل شرح الآية بأن «عواقب الأمور تصحّ إن صحّت بداياتها» . وسيرة حياتي تُثبت صواب هذا التفسير . ففي اليوم الذي أُدخلتُ فيه بعهد أبرَهام[3] عمل أبي مأدبة عظيمة ، فراح بعض من زوّاره يغنّي ، والآخر يرقص ، بينما راح الحاخامون يتبادلون الحديث حول حكمة الله وشرائعه . فراقَ الأمر لأبي أبُوياه ، فقال : «عندما يشبّ ولدي تعلّمونه فيصبح مثلكم» . فلم يكُ راغباً بتعليمي لوجه الله ، بل ليُشهر اسمه من خلالي وحسب . لذلك في آخر أيامي صرتُ خبيثاً ومُرتدّاً . والآن هيّا عُد» .

---

(1) سفر أيوب – 42 : 12 .

(2) سفر الجامعة – 7 : 8 .

(3) المُراد بعهد أبرَهام في اليهوديّة الختان ، انظر سفر التكوين – 17 : 9-14 .

«ولماذا ؟» .

«لأنه في يوم شَبّات لا يجوز لك أن تمضي إلى هذا الحدّ ، إذ حسبتُ المسافة التي قطعتَها معي بتعداد خطوات حصاني» .

قال الرّابي مئير : «طالما كنت بهذه الحكمة فتحسب لي المسافة التي يجوز لي اجتيازها من خلال خطوات حصانك ، ولمّا كنتَ حريصاً على مصلحتي ، فما بالك لا تعود إلى الله وتتوب عن رِدّتك ؟» .

فأجاب إليْشَاع : «ليس ذلك لي . ففي إحدى المرّات كنتُ أركب حصاناً في يوم الغُفران ، وصادف مجيؤه يوم شَبّات . فلمّا عبرتُ بالكنيس سمعتُ صوتاً ينادي : «عودوا أيها الأبناء الضالّون ، عودوا إليّ فأعود إليكم ، ما خلا إليْشَاع بن أبُوياه ، الذي عرف مولاه ثم تمرّد عليه» » .

فما الذي يدفع رجلاً متفقّهاً كإليْشَاع بالرّدّة إلى طرق الضّلال ؟

يُذكر أنه عندما كان مرّة يدرس الشّريعة في وادي جِنُوسان ، أبصر رجلاً يتسلّق شجرة ، وعثر الرّجل على عُشّ طير في الشّجرة ، ورُغم أنه أخذ الأم وفراخها فقد انصرف دون أن يمسسه أي ضرر . ثم رأى رجلاً آخر عثر على عُشّ طائر ، فاتّبع تعاليم الكتاب المقدّس وأخذ الفراخ فقط ، تاركاً الأم تطير عنه ، ومع ذلك نهشته حيّة فيما كان نازلاً ، فمات . ففكّر إليْشَاع في نفسه : «إذاً أين هي حقيقة الكتاب المقدّس ووعوده ؟ أليس مكتوباً : «فلا تأخذ الأم مع الأولاد ، أطلق الأمّ وخُذ لنفسك الأولاد ، لكي يكون لك خيرٌ وتُطيل الأيام»[1] . فأين هو طول الأيّام المزعوم لذاك الرّجل الذي اتّبع الوصية ، بينما الآخر الذي انتهكها بقي سليماً مُعافى ؟» .

إنه لم يسمع كيف فسّر الرّابي عَقيبا هذه الآية ، بأن طول الأيام إنما هو في الحياة الآتية ، حيث السّعادة تعمّ .

وثمّة سبب آخر أيضاً يُروى حول دافع إليْشَاع للضّلال والارتداد ،

---

(1) سفر التّثنية – 22 : 6-7 .

ففي غُضون الفترة المشحونة بالخوف خلال مرحلة الاضطهاد الدّيني ، كان الرّابي الفقيه يهوداه ، الذي أمضى حياته في دراسة الشّريعة وتطبيق وصايا الله ، قد سُلِّم إلى أيدي جلاّدي التّعذيب الغلاظ القلوب . فوُضع لسانه في فم كلب فقضمه الكلب وانتزعه من فيه .

فقال إليْشَاع : «إن كان اللّسان الذي لم ينطق إلاّ بالحقّ يُعامَل هكذا ، والحكيم الفقيه يُهان على هذا النّحو ، فما هو إذاً جدوى تجنّب الكذب وزلاّت اللّسان ، أو اجتناب الجهل ومَثالبه ؟ فإن كان ما جرى هذا وارداً ومسموحاً ، فمعناه بلا ريب أنه لا الصّالح يُجزى بإحسانه ، ولا قيامةَ بعد الموت» .

ولمّا أمسى إليْشَاع عجوزاً وقع طريح المرض ، فلمّا درى الرّابي مئير بمرض معلّمه العجوز ، قام بعيادته .

قال الرّابي مئير متوسّلاً : «أوّاه ، عُدْ إلى إلهك ، عُدْ !» .

قال إليْشَاع : «ماذا ؟ أعود ؟ وهل يقبل توبتي ، توبة مُرتدّ تمرّد عليه بهذا الشكل ؟» .

قال مئير : «أليس مكتوباً : «تُرجع الإنسان إلى الغُبار» ؟ (المزامير 90 : 3) . فمهما كانت نفسُ الإنسان محطّمة ، يبقى بإمكانه الأوبة إلى إلهه والحصول على المغفرة وراحة النّفس» .

فاستمع إليْشَاع إلى هذا الكلام ، وبكى بمرارة ثم فاضت روحه[1] . ولم يمض كثير من السّنين عقب موته ، حتى أتت بناتُه وقد عضّهن الفقر بنابه ، يلتمسن العون من المدرسة . فقُلن : «تذكّروا محاسن أبينا في تفقيهه النّاس ، لا في مسلكه» .

فامتثل القيّمون على شؤون المدرسة لهذا المطلب ، وأعانوهنّ .

---

(1) ولد إليشاع قبل عام 70 م ، واستهوته الحضارة الهلّينيّة فربما كان هذا دافع ارتداده ، وقيل كان غنوصياً ، فكان يُلقّب بلفظ أخير אחר أي الآخَر (الكافر) . وشخصية هذا الرّجل تستدعي الدّراسة حقاً ، ولم يُكتب عنه باللغة العربية غير إلماع في موسوعة المسيري . وعنه دراسة للباحث اليهودي بيرديشفسكي .

الرّابي شمعون
רבי שמעון

كان الرّابي يهوداه والرّابي يُوسيه (جُوزيه) والرّابي شمعون يتناقشون في بعض الأيام ، عندما دخل يهوداه بن جيريم البيت الذي كانوا فيه ، وجلس مع الثلاثة . وكان الرّابي يهوداه يتحدّث بمديح ضافٍ عن الأمميين (الرّومان)[1] . فقال : «أترون كيف حسّنوا من أمر مُدُنهم ، وكيف رفعوا رونقها وجمالها ، وكم بذلوا من جهد لأجل راحة مواطنيهم ورفاهيّتهم : حمّامات عامّة ، وجسور ، وشوارع أنيقة وعريضة . لا شكّ بأن لهم بذلك فضلاً عظيماً» .

أجاب الرّابي شمعون : «لا بل كلّ ما فعلوه كان ناجماً عن دافع الأنانيّة . فالجسور تعود عليهم بالعوائد ، لأن كلّ مَن يستعملها تتوجّب عليه ضريبة ، أما الحمّامات فهي لتَرَفهم الشّخصي . هذه كلّها من ضروب الأنانيّة ، وليس بدافع الحسّ الوطني» .

فراح يهوداه بن جيريم يردّد هذا النّقاش على أسماع أصحابه ، حتى وصل أخيراً إلى أُذني الإمبراطور ، فلم يضرب على ذلك صفحاً . فأمر بأن يهُوداه ، الذي تكلّم بخير في حقّ الدّولة ، يُرقّى شأنه ويُكرَّم ؛ وأن يُوسيْه (جُوزيه) الذي بقي صامتاً بدلاً من أن يُثني على تصريحات يهُوداه ، يُنفى إلى صِفُوري צִיפּוֹרִי ؛ وبأن يُعدَم شمعون الذي اعترض على المديح .

فما كان من هذا الأخير إلاّ أن هرب مع ابنه واختبأ في المدرسة عندما درى بهذا المرسوم الإمبراطوري . ومكث هناك بأمان نسبي مدّة من الوقت ، وكانت زوجته تجلب له الطعام يومياً . ولكن عندما طُلب إلى الضبّاط القيام ببحث مكثّف خاف ، وتحسَّب من أنه عبر قلّة انتباه امرأته قد يُكشف مكان اختبائه .

قال في نفسه : «إن عقل المرأة ضعيف ومتقلقل ، فإن استجوبوها وأريكوها أقرّت بمكاني ، وكان الموت مصيري لا مَحالة» .

---

(1) يعدّ اليهود الرّومان من أكبر أعداءهم ، عانوا منهم اضطهاداً وتنكيلاً قاسيين طوال حكم روما للمشرق (64 ق . م – 395 م) ، وهدم تيطوس هيكلهم عام 70 م .

فلذا خرج شمعون وابنه من المدينة وأويا إلى كهف ناءٍ في البرّيّة ، وكان بقرب هذا الكهف بضعة أشجار فاكهة كانت تمدّهم بالقُوت ، ونبع ماء صافٍ ينبجس بين الصّخور في الجوار القريب . وعاش الرّابي شمعون هناك مدّة ثلاث عشرة سنة ، إلى أن مات الإمبراطور وأُلغيت مراسيمه . فعاد عندها إلى المدينة .

فعندما درى صهره الرّابي فِنْحاس بمقدمه ، خفّ إلى زيارته على الفور ، ولمّا آنَسَ انحساراً واضحاً في حالة نسيبه الذّهنية والجسدية ، ابتدره قائلاً : «ويلتاه وأوّاه إذ ألقاك بهذه الحالة التّعيسة !» .

غير أن الرّابي شمعون أجاب : «ليس الأمر بذاك ، بل الحمد لله أنك تجدني بهذه الحالة ، لأنك لا تراني أقلّ صلاحاً وتُقىً من ذي قبل . فلقد حفظني الله ، وحافظ على إيماني به ، ولذا فمن الآن وصاعداً لأستفيضنّ في شرح آية التّوراه : «وكان يعقوبُ إنساناً كاملاً»[1] . فهو كاملٌ في حالته الجسديّة ، وكاملٌ في حالته الدّنيويّة ، وكاملٌ في معرفته بالله» .

* * *
* *
*

(1) سفر التكوين – 25 : 27 .

أثناء مناقشة أنطونينوس للرّابي يهُوداه ، قال له : «في الحياة الآخرة ، عندما تمثُل الرّوح بين يدي الخالق الأعظم للحساب ، ألا يمكن لها أن تجد دعوى للتّنصّل من الخطايا الدّنيويّة ، بالقول : «إن هذا الخطايا كانت خطايا الجسد ، وإذ أنّي تخلّصتُ من الجسد ، فلستُ مسؤولة عن هذه الخطايا» ؟» .

أجاب الرّابي يهُوداه : «دعني أقصُّ عليك هذه الحكاية[1] : كان لملك بستان تين فاخر ، وكان لديه مفضّلاً أثيراً . فلئلاّ تتعرّض ثماره للسّرقة أو الأذيّة ، عيّن على البستان حارسين اثنين ، ولكن ليدرأ احتمال ألا تميل نفساهما إلى الأكل من ثمار البستان ، اختار الواحد منهما أعمى والآخر أعرج . ولكن إذ أضحيا في البستان ، قال الأعرج لصاحبه : «إنّي لأرى تيناً فائق الجودة ، وكم هو لذيذ وشهيّ ، احملني إلى الشجرة حتى نتمكّن كلانا من الأكل منه» .

«فقام الأعمى بحمل الأعرج ، وأكلا من التّين .

«ولمّا دخل الملك البستان لاحظ على الفور أن خير ثمار التّين قد اختفت ، فسأل الحارسين عمّا جرى بها . فأجاب الأعمى : «لستُ أدري . وليس في إمكاني سرقتها ، فأنا أعمى ولا أستطيع رؤيتها» . وأجاب الأعرج : «ولا أنا بإمكاني سرقتها ، فلستُ أستطيع أن أطول الشّجرة» .

«غير أن الملك كان حكيماً ، فأجاب : «بل قام الأعمى بحمل الأعرج» ، وعمد إلى معاقبتهما وفقاً لذلك .

«فهذا هو شأننا . ما الدّنيا إلا بُستان أحلّنا فيه الملك الأزليّ ، لكي نتولّى حراسته ونقوم عليه ، ونفلح تُرابه ونعتني بثماره . أما الرّوح والجسد فما هما إلا الإنسان ، إن انتهك أحدهما الوصايا انتهكها الآخر ، ولذا فبعد الموت ما ينبغي للرّوح أن تقول : «إنه بسبب الجسد الذي كنتُ لازمةً به ارتكبتُ المعاصي» ، لا فالله سيفعل كما فعل صاحب البستان ، كما هو مكتوب : «يدعو من السّموات من فوق ، إلى الأرض إلى مُداينة شعبه»[2] .

---

(1) نرى في قصص تراثنا الإسلامي تشابهاً ، كما في كتاب «التوّابين» لابن قُدامة لمقدسي .
(2) مزمور لآساف ، سفر المزامير – 50 : 4 .

«يدعو من «السّموات من فوق» ، التي هي الرّوح ، «إلى الأرض تحت» ، التي هي الجسد ، الممتزج بالتُّراب الذي منه أتى» .

* * *

قال رجلٌ وثنيّ للرّابي يهُوشُوَع : «أتؤمن بأن الله يعرف الغيب ؟» .

أجاب الرّابي : «نعم» .

قال السّائل : «إذاً لماذا هو مكتوب : «فقال الرَّبّ : «أمحو عن وجه الأرض كلّ ما خلقتُه ، لأنّي حزنتُ أني عملتُهم» ؟ (سفر التكوين 6 : 7) ، ألم يعرف الرّب مُسبقاً بأن الإنسان سيفسد ويعمل الشّرّ ؟» .

فقال الرّابي يهُوشُوَع : «ألديكَ أولاد ؟» .

فكان جواب الرّجل : «نعم» .

«فماذا كنتَ تفعل عندما يُولَد لك طفل ؟» .

«كنتُ أعمل حفلاً عظيماً» .

«فما الذي كان يدفعُك إلى الابتهاج ؟ ألا تعلم بأنهم مائتون يوماً ؟» .

«بلى ، هذا حقّ ، لكنني في ساعة الابتهاج لا أفكّر في المستقبل» .

قال الرّابي يهُوشُوَع : «فهذا هو إذاً شأن الله ، فهو يعلم بأن الإنسان سوف يُخطئ ، لكن علمه هذا لم يحُل دون تنفيذ غرضه الطيّب في خَلقه إيّاه» .

* * *

قال أحد الأباطرة للرّابون جَمْليئيل :

«ما إلهُك إلا لصّ ، كما هو مكتوب : «فأوقع الرّبّ الإله سُباتاً على آدم فنام ، فأخذ واحدةً من أضلاعه»[1]» .

فقالت ابنةُ الرّابي : «دَعني أجيب على هذا الطّعن الباطل . في الليل دخل اللّصوص غرفتي فسرقوا منها آنيةً فضيّة ، لكنهم تركوا بدلها آنيةً ذهبيّة» .

---

(1) سفر التكوين – 2 : 21 .

فقال الإمبراطور : «ليت مثل هؤلاء اللّصوص يأتون كلّ ليلة» .

فهذا كان شأن آدام ، أخذ الله منه ضلعاً ، لكنّه ترك بدله امرأة .

* * *

قال الرّابي يهُوشُوَع من سَكْنين ، نقلاً عن الرّابي ليڤي : «أخذ الرّبّ يفكّر من أيّ جزء من جسم الرّجل يخلق المرأة : ليس من الرأس ، لئلاّ تكون مغرورة . ولا من العينين ، لئلاّ ترغب برؤية كل شيء . ولا من الفم ، لئلاّ تكون ثرثارة . ولا من الأذن ، لئلاّ ترغب بسماع كل شيء . ولا من القلب ، لئلاّ تغلب عليها صفة الحسد . ولا من اليد ، لئلاّ ترغب باستكشاف كل شيء . ولا من القدم ، لئلاّ تكون جوّالة لا يقرّ لها قرار . وإنما من أكثر مكان احتجاباً ، وهو الذي يبقى مستوراً حتى وإن كان الرّجل عارياً . . ألا وهو الضّلع» .

* * *

في إحدى المرّات ، سأل تلاميذ الرّابي شمعون بن يُوحاي معلّمهم :

«لماذا لم يهب الرّبّ بني يسرَئيل ما يكفي من المَنّا ، لتقوم بأوَدهم حَولاً كاملاً مرّة واحدة ، بدلاً من إنزاله يومياً ؟» .

فأجاب الرّابي : «سأجيبكم بحكاية : كان هناك في بعض الأيام ملك وله ابن كان يعطيه مصروفاً سنوياً معيّناً ، وكان يدفع المبلغ بأكمله لنفقاته السّنوية في يوم محدّد . وسرعان ما أصبح الأمر على نحو أن هذا اليوم الذي ينبغي فيه دفع المبلغ كان اليوم الوحيد الذي يرى الأب فيه ابنه . فلذا قام الملك بتغيير ترتيباته ، وصار يعطي ابنه في كل يوم ما يقوم بشأنه لذلك اليوم حصراً ، ولذا صار الابن يزور أباه عند طلوع شمس كل صباح .

«فهذا كان شأن بني يسرَئيل ، وكان كلّ ربّ عائلة معتمداً على المَنّا التي ينالها في كل يوم من فضل الله ، لقُوته وقُوت عياله ، وهذا ما جعل بطبيعة الحال تفكيره مكرّساً للوهّاب العظيم وسَنَد الحياة» .

* * *

عندما كان الرّابي إليعيزَر مريضاً عادَه تلاميذه ، وقالوا : «أيها الرّابي ، علّمنا طريق الحياة كي نرث الخُلود» .

فأجاب الرّابي : «كرّموا أقرانكم . واعرفوا لمن تصلّون . امنعوا أبناءكم من المجادلات العَبَثيّة ، واجعلوهم بين المتعلّمين لكي يحصّلوا الحكمة . فهذا لكي تستحقّوا الحياة في العالم الآخر» .

ولمّا كان الرّابي يُوحَنان مريضاً زاره تلاميذه أيضاً . فلمّا رآهم طفق يبكي ، فقالوا له متعجّبين : «يا رابينُو[1] ! يا نُور يسرَئيل ! يا عِمادنا الأكبر ! ما الذي يُبكيك ؟» .

فأجاب الرّابي : «لو كنتُ مُقبلاً على المُثول بين يدي مَلك من لحم ودَم ، يعيش اليوم وغداً يُمسي إلى رَمْسه ؛ مَن قد يسخط عليّ ، ولكن ليس إلى الأبد ؛ مَن يسجنني ، ولكن ليس للأبد ؛ مَن قد يقتلني ، ولكن في هذه الدّنيا فحسب ؛ مَن قد أرشيه أحياناً ، حتى وإن خفت منه ؛ كان ذلك كلّه ليهون . ولكنّني أمثل الآن بين يدي ملك الملوك ، القُدّوس الأكبر ، تبارك اسمه ، الذي يبقى إلى أبد الدّهر . الذي إن غضب ، كان غضبه أبديّاً ؛ وإن سجنني ، فللأبد ؛ وإن أمر بقتلي ، ففي الحياة الآخرة ؛ وليس بوسعي رشوته لا بالكلام ولا المال . ليس هذا فحسب ، بل أمامي طريقان ، أحدهما يُفضي إلى حَوْمَة العَذاب ، والآخر إلى الثّواب ، ولستُ أدري على أيّهما أسير . أفلا أبكي إذاً ؟» .

* * *

سأل تلاميذ الرّابي يُوحَنان بن زَكّاي معلّمهم هذا السّؤال :

«ما السّبب في أنه ، بحسب الشّريعة ، تكون عقوبة قاطع الطّريق أخفّ وَطأة من عُقوبة السّارق النّقّاب ؟ فحسب شريعة مُوشيه : «إذا سرق إنسانٌ ثوراً أو حَمَلاً فذبحه أو باعه ، يُعوَّض عن الثّور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل بأربعة من الغَنَم» (سفر الخروج 21 : 37) .

---

(1) الصيغة في العبرية : רבינו ، وتعني : سيّدنا .

أما عن قاطع الطريق فنجد : «فإذا أخطأ وأقرّ بذنبه ، يردُّ المسلوب الذي سَلَبه ، يُعوِّضه برأسه ويزيد عليه خُمْسَه»[1] . ولذلك ، فمَن يرتكب عمل سَلب يُغرّم بخُمس قيمة المسلوب ، بينما يُغرَّم السّارق النّقّاب عن الثّور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل[2] بأربعة من الغَنَم . فلماذا يكون ذلك ؟» .

فأجاب المعلّم : «ذلك بأن قاطع الطريق السّلاّب يعامل العبد كمعاملة السّيّد ، فهو يقوم بالسّلب بحضور العبد ، أي الإنسان المسلوب ، والسيّد ، أي الله . أمّا السّارق المتسلّل النّقّاب فيتصور أن عين الله غافلة عنه ، فيقوم بأفعاله خفيةً ، وهو يحسب كما يقول صاحب المزامير : «ويقولون : الرّبّ لا يُبصر ، وإله يعقوب لا يُلاحظ» (المزامير 94 : 7) . اسمعوا هذه الحكاية : «عمل رجلان وليمة احتفال ، فبادر الواحد منهما إلى دعوة سكان المدينة بأجمعهم ، وأهمل دعوة الملك . أما الآخر فلم يدعُ لا الملك ولا رعيّته . فمَن تُراه منهما يستحقّ الإدانة ؟ لا ريب أنه الذي دعا الرّعيّة دون الملك . وطالما كان أهل الأرض رعيّة الله ، فإن السّارق المتسلّل يخشى عيونهم ، ولكنه لا يأبه لعين الملك ، أي عين الله المطّلعة على أفعاله كلّها» .

قال الرّابي مئير : «إن هذه الشّريعة تعلّمنا كيف يقدّر الله قيمة العمل . فإن سرق إنسان ثوراً يعوِّض عنه بخمسة ثيران ، لأنه عندما كان الثّور في حوزته بغير وجه حقّ لم يكن يؤدّي عملاً لصاحبه الشّرعي . وأما الحَمَل فلا عَمَل له ، ولا إنتاج له على هذا النّحو ، ولذلك فهو يعوِّض عنه بأربعة فقط» .

* * *

تعشّى الرّابي نَحمان مع معلّمه الرّابي يصحاق ، ولمّا قام بعد الأكل قال : «باركني يا معلّمي !» . فأجاب الرّابي يصحاق : «اسمع . كان مُسافرٌ يجتاز بالصّحراء يوماً ، فلمّا أخذ منه التّعب والجُوع والعطش كلّ مأخذ ، بلغ واحة بها شجرة مُثمرة وارفة الأغصان ، يجري تحتها نبع ماء صافٍ رقراق .

---

(1) سفر اللّيويين – 6 : 4 .

(2) ترد العبارة في التّرجمة العربية : الشّاة ، وهو غلط ، فالعبارة العبرية שה تعني الحَمَل .

«فأكل الغريب من الفاكهة اللّذيذة الطيّبة ، واستمتع وتقيَّل في الظلّ الماتع ، وروى ظمأه من الماء الفوّار الذي كان ينبجس رقراقاً تحت قدميه . ولمّا تأهّب لمتابعة رحلته ، توجّه إلى الشّجرة وقال لها :

« «أيتها الشّجرة المُباركة ، بأيّة كلمات أباركك ، وأيّ خير أتمنّاه لك ؟ لا أقدر أن أتمنّى لك طيب الثّمار ، فهي لك بالأصل وعلى كلّ حال ؛ وكذلك فبركة وفرة الماء صائرةٌ إليك سَلَفاً ، والظلّ الماتع الذي تمنحه الأغصان الجميلة قد وهبه الله الأزلي لك من قبل ، من أجلي أنا ومن أجل كلّ مسافر على هذا الدّرب . فذَريني إذا أدعو الله لك ، بأن يكون كلّ خَلَف لك طيّباً مُباركاً مثلك» .

«فهكذا هو شأنك يا تلميذي . كيف تراني أباركك ؟ فأنت ممتازٌ في معرفة الشّريعة ، ووجيهٌ في الأرض ، ومُبجَّلٌ ومُبارك في معاشك . فليهبك الله أن تكون ذُرّيتك كلّها صالحةً على مثالك» .

* * *

كان جِبْعاه بن بِسيْساه رجلاً حكيماً ، كما يقول الحاخامون . فلمّا قاضى أبناء كنعان اليسرَئيليّين بدعوى سرقة أرضهم ، قائلين : «أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «أرض كنعان . . أرض كنعان بتُخومها» (عدد 34 : 2) ، وطالبوا بردّها ، تصدّى جِبْعاه لمُرافعة القضيّة أمام الحاكم .

فقال جِبْعاه لهؤلاء الأفارقة : «إن كنتم تأتون ببُرهانكم من أسفار التُّوراه ، فمن التُّوراه أيضاً أدحضه لكم . ففيها : «ملعونٌ كنعان ، عبدُ العبيد يكون لإخوته» (سفر التكوين 9 : 25) . فأملاك العبد تعود في هذه الحالة لمن ؟ لسيّده طبعاً . حتى وإن كان مُلك الأرض أصلاً لكم ، فمن خلال العبوديّة آلَ إلى بني يسرَئيل .

قال الحاكم : «دُونَكم فردّوا عليه» .

فطلب المُدَّعون ثلاثة أيام لإعداد ردّهم ، ولكنهم في ختام الأيام الثلاثة توارَوا عن الأنظار .

ثم تقدّم المصريّون قائلين : « «وأعطى الرّبُّ نعمةً للشّعب (اليسرَئيليين) في عيون المصريين ، حتى أعاروهم فضّةً وذهباً»[1] . فالآن هلُمّوا أعيدوا لنا الذّهب والفضّة التي أعارها لكم أجدادنا» .

ومجدّداً تقدّم جِبْعاه بالنّيابة عن حاخامي يسرَئيل ، فقال : «أقام بنو يسرَئيل في مصر أربع مئة وثلاثين سنة ، فهلمّوا الآن ، ادفعوا لنا أجور الستّ مئة ألف رجل الذين عملوا لكم مجاناً ، فنردّ لكم الذّهب والفضّة» .

ثم تقدّم بنو يشْمَعيل وقِطُوْراه أمام الإسكندر المَقدوني ، فقالوا : «بل أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يشْمَعْيل بن أبرَهام» ، تماماً كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يصحاق بن أبرَهام» . ولمّا كان الابن يعدل الابن الآخر ، فهلُمَّ أعطنا نصيبنا» .

فقام جِبْعاه ثانيةً نائباً عن الحاخاميم ، وقال : «من التُّوراه التي تأخذون منها بُرهانكم أردّ دعواكم . أليس مكتوباً : «وأعطى أبرَهامُ يصحاقَ كلّ ما له ، وأمّا بَنو السَّراري اللّواتي كانت لأبرَهام فأعطاهم أبرَهام عَطايا»[2] . فالرّجل الذي يعطي لأبنائه ميراثهم خلال فترة حياته ، لا يقصد من خلال ذلك أن يعطيهم إيّاه ثانيةً بعد موته . فليصحاق أعطى أبرَهام كلّ ما يملك ، ولأبنائه الآخرين سواه أعطى عطايا ، ثم صرفهم .

يقول الحاخامون : «كان الملك مُنماص من سلالة الملوك الحشمونيين رجلاً صالحاً حقاً . وهب للفقراء خلال فترة من فترات المجاعة كلّ ما في خزانته وخزانة أبيه ، فلامه أقرباؤه وانتقدوه قائلين : «كلّ ما جمعه أبوك ضيّعتَه وبدّدتَه» .

فأجاب مُنماص : «أبي كوّم هذه الكنوز هنا على الأرض ، أمّا أنا فأجمعها فوق في السّموات . و«ثَمَر الصِّدّيق شجرة حياة ، ورابحُ النُّفوس حكيم»[3] . فأبي اختزنها حيث يمكن أن تصل إليها أيدي النّاس ، أما أنا فقد جعلتُها حيث لا

---

(1) سفر الخروج – 13 : 26 .
(2) سفر التكوين – 25 : 5 .
(3) سفر الأمثال – 11 : 30 .

تبلغها يدُ بشر . وإذ جاء في الكتاب : «العدلُ والحقّ قاعدة كُرسيك»[1] . فلأبي لم يُثمر هذا الكنز أيّة ثمار ، لكنه أثمر لي وأكثر أضعافاً مُضاعفة . «قولوا للصِّدّيق خيرٌ ، لأنهم يأكلون ثمرَ أفعالهم»[2] . لقد ادَّخر أبي مالاً ، وادّخرتُ أنا حياة . «ثَمَرُ الصِّدّيق شجرة حياة ، ورابحُ النّفوس حكيم»[3] . أبي ادّخر لغيره ، وأنا ادّخرتُ لنفسي ؛ وكان ادّخاره لهذه الحياة الدّنيا ، بينما ادّخرتُ للآخرة . «ويسيرُ بِرُّك أمامك ، ومجدُ الربّ يجمعُ ساقَتَكَ»[4] » .

* * *

(1) من قصيدة لإيتان الأزراحي في سفر المزامير – 89 : 14 .
(2) سفر يشَعْياه – 3 : 10 .
(3) سفر الأمثال – 11 : 30 .
(4) سفر يشَعْياه – 58 : 8 .

obeikandl.com